

تاريخ المصريين ١٥

المستشرقون
والتاريخ الإسلامي

د. على حسنى الخربوطلى



تاريخ المصريين

١٥

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

الاخراج الفنى : محمد قطب

الغــلاف : اسامة سعيد

المستشرقون
والتاريخ الإسلامي

د. علي حسني الخربوطلي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

تقديم

يسرنى أن أقدم الى القارىء الكريم كتابا رائدا فى مادة بحثه ، وهو : « المستشرقون والتاريخ الاسلامى » ، للأستاذ الدكتور على حسنى الخربوطلى . وقد لعب المستشرقون دورا هاما فى تاريخ بلادنا ، وخاصة التاريخ الحضارى ، وهم يعتبرونه ركنا أصيلا فى دراسة أدبياتنا ولغتنا وعلومنا . ويرجع اليهم الفضل فى ابراز المقومات الكبرى والمعالم الرئيسية لحضارتنا ، وقد أوضحوا أن الحضارة الاسلامية ليست تراث جنس واحد أو أمة واحدة من الأمم ، وانما هو تراث جميع الأمم التى اعتنقت الاسلام ، وعن هذه الأمم تلقى الغرب مبادىء النهضة فى العصور الوسطى .

ولهذا السبب حظى المستشرقون منذ زمن باهتمام الباحثين المصريين والعرب ، مثل الأستاذ عباس محمود العقاد ، ومحمد عبد الغنى حسن ، ونجيب العقيقى ، واسحق موسى الحسينى ، ولكن اهتماماتهم انصبت اما على تفنيد آراء المستشرقين التى يرونها ماسة بالاسلام والشعوب الاسلامية ، واما على نشاط هؤلاء المستشرقين العلمى . ولكن الكتاب الذى بين أيدينا يركز على جانب واحد من الاستشراق ، وهو الاستشراق فى مجالات التاريخ الاسلامى .

ومن المعروف أن تاريخ مصر هو جزء لا يتجزأ من التاريخ الاسلامى ، ومن هنا فقد شغلت مصر جانبا هاما من اهتمامات المستشرقين ، فتوافد الكثيرون عليها ، خصوصا منذ الحملة الفرنسية على مصر ، التى اصطحبت معها عددا كبيرا من العلماء المستشرقين المتخصصين فى كافة فروع المعرفة ، ثم فى عهد محمد على الذى توافد فيه على مصر عدد كبير من المستشرقين . ومن هنا كان طبيعيا أن يهتم الكتاب بالاستشراق فى تاريخ مصر فى اطار اهتمامه بالتاريخ الاسلامى العام .

ومؤلف الكتاب هو الأستاذ الدكتور على حسنى الخربوطلى ، أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية البنات بجامعة عين شمس ، والذى قدم للمكتبة العربية عددا هاما من الأعمال العلمية فى مجال تخصصه . وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى عام ١٩٧٠ ، وصدرت عن المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ، ونفدت هذه الطبعة تماما ، ولم يتبق منها الا نسخة وحيدة هى التى استعنا بها فى اصدار هذه الطبعة الجديدة ، خدمة لجمهور الباحثين والقراء .

وتمتاز هذه الطبعة الجديدة من الكتاب بخلوها من الأخطاء القليلة التى شابت الطبعة الأولى ، بعد أن تولى الدكتور الخربوطلى تصويبها ، كما تخلص من المصطلحات التى كانت تناسب الطبعة الأولى ، مثل استبداله اسم مصر باسم الجمهورية العربية المتحدة بعد أن غيرت مصر اسمها الى جمهورية مصر العربية .

وأملى أن يحظى هذا الكتاب القيم بما يستحقه من تقدير واهتمام الدوائر العلمية والقراء .

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

مقدمة

حركة الاستشراق ، حركة علمية قديمة يرجع تاريخها الى أكثر من ألف سنة ، ولا تزال قائمة حتى اليوم . وهى حركة واسعة النطاق ، متعددة الجوانب ، متشابكة الأطراف . وقد تناول المستشرقون جميع الدراسات الشرقية بصفة عامة ، والدراسات العربية الاسلامية بصفة خاصة . ورغم كثرة عدد المستشرقين ، وتعدد جهودهم العلمية ، ونشرهم العديد من الأبحاث ، ورغم أثر الاستشراق فى الفكر العربى ، فان الكتب العربية التى تدرس حركة الاستشراق وجهود المستشرقين ، لا زالت قليلة الى حد كبير . اذ تتصف دراسة هذا الموضوع الحيوى بالصعوبة والتعقيد والتشابك .

واتجهت الكتب القليلة التى تناولت الاستشراق والمستشرقين اتجاهين متميزين : فبعض هذه الكتب تعدد آراء المستشرقين التى أساءت الى الاسلام وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام والحضارة الاسلامية ، ثم تقوم بتنفيد هذه الآراء ، ثم بالتعبير عن وجهة النظر الاسلامية . وأبرز هذا النوع من الكتب ، كتاب (حقائق الاسلام

وأباطيل خصومه) للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد ، وكتاب (الاسلام بين الانصاف والجحود) للأستاذ محمد عبد الغني حسن ، وكتاب (الاسلام والمستشرقون) للأستاذ زكريا هاشم زكريا .

أما النوع الثاني من هذه الكتب ، فهي تعدد لنا أسماء المستشرقين وتذكر مؤلفاتهم وأبحاثهم في جميع المجالات الانسانية والعلمية ، من أدب وفلسفة وتاريخ وآثار وطب وهندسة ، وغير ذلك من فروع المعرفة ، كما تذكر الجامعات التي تهتم بالاستشراق وتعدد كراسي الأستاذية . ومن أبرز هذا النوع من الكتب ، كتاب (المستشرقون) للأستاذ نجيب العقيقي ، وكتاب (الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الألمانية) للمستشرق الألماني المعاصر (بارت) ، وكتاب (علماء المشرقيات في انجلترا) للدكتور اسحق موسى الحسيني .

وكتابنا هذا يختلف في موضوعه وتخصصه واهتماماته تماما عن الكتب السابق الاشارة اليها ، وهي كتب ذات قيمة علمية كبيرة وتستحق التقدير . فقد آثرنا أن نركز الدراسة في جانب واحد من الاستشراق ، ونتعمق في دراسته ، ونلم بجميع أطرافه ، وهو الاستشراق في مجالات التاريخ الاسلامي ، وهي المادة التي تخصصنا فيها ووهبناها حياتنا وجهودنا واهتمامنا . ولذا نستطيع أن نقول – باطمئنان – ان كتابنا هذا هو الوحيد الذي يختص بدراسة هذا الموضوع الحيوي الهام على أساس علمي منهجي .

وقد بدأنا دراستنا الجديدة هذه بتحديد لمفهوم الشرق ، فقد تغير مفهومه الجغرافي والحضاري على مر العصور التاريخية ، كما قمنا بتعريف (المستشرق) تعريفا متميزا ، وذكرنا الشروط الواجب توافرها فيمن يشارك في حركة الاستشراق .

وفى الفصل الثانى ، تتبعنا مراحل الاستشراق فى التاريخ الاسلامى عبر عصور التاريخ المختلفة ووصلنا الى نتائج جديدة فى تحديد نقطة بداية وانطلاق الاستشراق ، ثم درسنا صور الاستشراق المختلفة فى العصور الوسطى ، حتى وصلنا الى الاستشراق فى بداية العصور الحديثة ، ودرسنا الاستشراق فى العالم العربى والاسلامى فى العصر العثمانى ، ثم فى التاريخين الحديث والمعاصر ، وتحدثنا عن المستقبل الذى ينتظر حركة الاستشراق .

وفى الفصل الثالث ، تحدثنا باسهاب عن دوافع الاستشراق ، وركزناها فى ثلاثة دوافع : دينية ، واستعمارية ، وعلمية . ودرسنا عوامل اختلاف هذه الدوافع ، والظروف المحيطة بها ، وعقدنا مقارنة بينها ، وأشرنا الى موقف العرب والمسلمين من الاستشراق بصوره المختلفة ، كما تحدثنا عن أبرز المستشرقين فى كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة .

وقمنا فى الفصل الرابع بتصنيف للمستشرقين ، فليس كل المستشرقين سواء فى أهدافهم واتجاهاتهم ، وميولهم . فوجدنا فئة من المستشرقين أنصفت الاسلام والرسول والتاريخ العربى والاسلامى ، وقدمت لنا أبحاثا ذات قيمة علمية كبرى ورأينا فئة ثانية ، تعمدت الاساءة الى تاريخنا وحضارتنا ، وان كانت قد قدمت — فى نفس الوقت — الى مكتبتنا العربية أبحاثا هامة . أما الفئة الثالثة من المستشرقين فقد وقعت فى الزلل والخطأ أيضا ، ولكن بدون قصد أو عمد ، نتيجة جهل أو سوء فهم أو قصور فى الدراسة . وقد فلسفنا اتجاهات هذه الفئات الثلاث ، وأشرنا الى أمثلة عديدة ، تصور جميع الاتجاهات .

وفى الفصل الخامس ، والأخير ، قمنا بتقويم لجهود المستشرقين فى دراسة التاريخ الاسلامى ، فتحدثنا عن المزايا والصفات التى اتصف بها المستشرقون وميزت أبحاثهم · ثم درسنا جهود المستشرقين فى الاهتمام بالتراث الاسلامى والعربى ، ثم تحدثنا عن اهتمامات المستشرقين فى انشاء المطابع واصدار المجلات العلمية وعقد المؤتمرات · ثم خصصنا الحديث عن دائرة المعارف الاسلامية · وفى الختام تساءلنا عن موقف الباحثين العرب فى المستقبل من أبحاث المستشرقين ومدى استفادتهم منها ·

هذا وقد لاحظنا أن الكتب التى تناولت الاستشرق والمستشرقين ، تأرجحت بين موقفين متناقضين ، فبعض هذه الكتب تحاملت على أبحاث المستشرقين تحاملا شديدا ، واعتبرتهم رسلا للاستعمار وصورا للغزو الاستعمارى الفكرى والحضارى ، كما اعتبرت المستشرقين جميعا أعداء للاسلام والحضارة العربية · ثم نجد كتبا أخرى تحمست للاستشراق ، وغالت فى مدح المستشرقين ووضعتهم فوق قمة الفكر العربى وجعلتهم مبعوثى العناية الالهية للاهتمام بتراثنا العربى والاسلامى ·

ولكننا آثرنا — فى كتابنا هذا — انتهاج سياسة الحياد الايجابى العلمى ، فأعطينا ما لقيصر الى قيصر ، وما لله الى الله · وكان هدفنا دائما مد القارىء العربى بصورة علمية دقيقة واقعية عن المستشرقين فى التاريخ الاسلامى ، وعن جهودهم ، ودوافعهم ، واتجاهاتهم ، وقيمة أبحاثهم ، والنتائج التى وصلوا اليها · كما اهتممنا بدراسة مستقبل الاستشراق فى مجالات التاريخ الاسلامى ·

ونرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا فى هذه الدراسة الجديدة ، وأرجو أن تكون فاتحة للمزيد من الدراسات العلمية فى تاريخ الاستشراق ، والله عز وجل ولى التوفيق ·

المؤلف

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تعريف بالمستشرق

ظهرت كتب قليلة تتحدث عن المستشرقين . وتبرز جهودهم في مجالات الدراسات الاسلامية والعربية . ولكن هذه الكتب رغم قيمتها العلمية ، ورغم تعدد جوانب دراستها ، الا أنهـــا لا تقدم للقارىء تعريفا ثابتا محددا للمستشرق ، فيظل بذلك الفراغ قائما ، وفي حاجة الى المزيد من الجهد لنصل الى التعريف بالمستشرق ، وهذا الفصل يسلط الأضواء على الاستشراق ، ويجلو الحقيقة التى لا زالت غامضة غير محددة .

مفهوم كلمة شرق :

عرف المفكر الألمانى المعاصر (رودى بارت) (١) الاستشراق فقال : « كلمة أستشراق مشتقة من كلمة (شرق) ، وكلمة شرق

(١) بارت : الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الألمانية (ترجمة الدكتور مصطفى ماهر) ص ١١ (طبعة دار الكتاب العربى) .

تعنى مشرق الشمس ، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق ، أو علم العالم الشرقى » • ولكن (بارت) بعد ذلك يجد نفسه فى حيرة ، فيتساءل : ما معنى كلمة (شرق)؟! فان مفهوم هذه الكلمة يتغير تبعا لاختلاف المكان ، وتبعا لتغير الأزمان • فالشرق يختلف بالنسبة للياباني أو العربى أو الألمانى أو الانجليزى أو الأمريكى • والشرق يختلف بالنسبة لأهالى العصور القديمة والوسطى أو للبشر فى تاريخنا الحديث والمعاصر ، وخاصة بعد اكتشاف الأمريكتين • فقد كان البحر المتوسط فى العصور الوسطى هو مركز الحياة فى العالم ، وكان هذا المركز هو الذى يحدد مفهوم كلمتى (شرق) و (غرب) ، ثم انتقل مركز الأحداث بعد نهاية هذه العصور الوسيطة الى شمال غرب أوروبا ، ثم اتسعت حدود العالم بعد قيام حضارات كثيرة راقية فى القارتين الأمريكتين ، وأدى هذا الاتساع الجغرافى والحضارى الى تغير مضمون ومفهوم (الشرق) •

ولذا فتحديد أبعاد (الشرق) لا يزال غامضا وغير ثابت أو محدد • ولنا أن نتساءل هل نقصد بكلمة (الشرق) مفهوما جغرافيا ، أم حضاريا ، أى هل هناك حدود جغرافية واضحة ثابتة يمكن أن تضم أطراف الشرق ، أم أن كلمة (شرق) انما تعبر عن صورة حضارية وأسلوب حياة له مميزاته وخصائصه التى تميزه عن غيره ؟

لقد رأى كثير من المفكرين أن البيئة الطبيعية والأحوال الجغرافية تؤثر فى حياة الأمم وطبائعها ، حتى أن البعض ذهب الى أن (الأمة) وليدة البيئة الجغرافية • ومن هؤلاء المفكرين (مونتسكيو) فى كتابه (روح القوانين) ، فقد ذهب الى أن البيئة تؤثر فى أخلاق الأمة وسجاياها تأثيرا كبيرا ، وحاول أن يعلل قيام النظم الديموقراطية أو النظم الاستبدادية بالأحوال الطبيعية • ولكن فات

(مونتسكيو) ان البيئة الجغرافية تعطى امكانيات عديدة ، ولكنها لا تحتم أمرا من الأمور ، وأن مبلغ استفادة الشعوب من هـذه الامكانيـات يختلف باختلاف أدوار التاريـخ ومستوى الحضـارة وخصائصها (١) ٠

وقد حاول البعض أن يوجدوا روابـط سياسية وحضـارية مستندة الى روابط جغرافية ، مثل الرابطة الشرقية ، ورابطة البحر المتوسط ٠ ولكننا لا يمكننا أن نخضع مثل هذه الروابط لوحدة جغرافية أو اقليمية ٠ ان (الرابطة الشرقية) ظهرت فى يوم من الأيام ، حينما أصبح الشرق معرضـا لأطمـاع الدول الاستعمارية الغربية ، ورأى أبناء الشرق أن يتكاتفوا ويتقاربوا لمواجهة هـذه الأطماع السياسية ٠ كما أن الشرقيين ادركوا أيضـا أنهم أهـل الحضارة القديمة ، وأن بلادهم كانت قلب العالم القديم ، وأن بينهم نزلت الأديان السماوية ، ولكن لمعان الشرق القديم قد انطفأ ، وخبت أنوار الحضارة القديمة والمجد السالف ، وأصبح الشرق مجالا لأطماع الطامعين من المستعمرين ٠ وبذلك تكون هذه (الرابطة الشرقية) المقترحة هى نتيجة ظروف طارئة ذات طابع سياسى ٠

كما دعا الفرنسيون يوما الى (رابطة البحر المتوسـط) ، وزعموا أن أهالى الأقاليم المطلة على هذا البحر ذات حضارة وثقافة من لون خاص وطابع مميز ، وكان من أهداف الفرنسيين شد أبناء سوريا ولبنان والمغرب العربى الى فرنسا ، وتوثيق الصـلات السياسية بين هؤلاء العرب وفرنسا ٠ حقا كانت سواحل البحر المتوسط فى عهد من عهود التاريخ المركز الوحيد للحضارة البشرية ،

---

(١) انظر كتابنا (القومية العربية من الفجر الى الظهر) ص ٢٤ (طبعة الحلبى سنة ١٩٥٩) ٠

ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك ، فقد انتشرت الحضارة أولا الى شمال أوروبا ، ثم الى الأمريكتين ، وأصبحت الحضارة غربية ، ثم أوروبية أو أمريكية ، ولم يعد للبحر المتوسط ميزة عامة أو طابع مميز (١) ٠

وتعرضت لفظة (الشرق) فى أعقاب الفتوحات العربية الاسلامية لتغيير كبير فى معناها ومدلولها ، اذ اتسع مضمونها ٠ فقد انطلق الفاتحون العرب من شبه الجزيرة العربية ، لا الى الشمال والى الشرق فحسب ، بل الى الغرب أيضا ، ونجحوا فى فتح مصر وشمال أفريقية حتى وصلوا الى المحيط الأطلسى ، وهو الحد الغربى للعالم القديم حينئذ، أى أن العرب قد تجاوزوا شرق العالم ،ووصلوا الى غربه ٠ وتغيرت أوضاع المغرب العربى ، فقد انتشر فيه الاسلام . والعروبة ، والحضارة الاسلامية . والنظم العربية ٠ وأصبح أهالى المغرب ، عربا ، ومشرقيين ، ولم يعودوا كما كانوا مغاربة أو سكانا للمغرب ، حيث الحدود الغربية للعالم حينئذ ، وحيث تغرب الشمس كما يعتقدون ٠

وهنا يجد المفكر الألمانى المعاصر (بارت) (٢) نفسه فى حيرة شديدة ، فيقول : ومنذ الفتح العربى تعتبر مصر وبلدان شمال أفريقية ضمن الشرق ، ويختص الاستشراق حتى بشمال غرب أفريقية الذى يسمى بالمغرب أى بلد غروب الشمس ، وان كان اسمه ــ الاستشراق ــ يفترض انه يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها ٠

وفى نهاية الأمر ، لا يصل (بارت) الى تحديد ثابت نهائى

---

(١) من محاضرات المرحوم الأستاذ ساطع الحصرى بمعهد البحوث والدراسات العربية ٠

(٢) الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الألمانية ص ١٢ ٠

لمفهوم كلمة (شرق) ، ويعترف هو بذلك ، ويرى الأفضل له أن يوجه اهتمامه الى تعريف (الاستشراق) ، فيقول (١) : « ومهما يكن من أمر ، فان اسم الشرق لا يبين بوضوح مستقيم المقصود منه بالضبط . والمهم هو الموضوع ذاته . أى الاستشراق » .

ان تحديد (العـــالم الشرقى) يشبه فى صعوبة تحديده (العالم العربى) . فقد اختلف تحديد أبعاد (العالم العربى) تبعا لاختلاف العصور والأزمان . وربما لو سلطنا الأضــواء الآن على مفهوم (العالم العربى) على مر العصور التاريخية ، لامكننا أن نفهم أبعاد مفهوم (العالم الشرقى) ، وخاصـــة أن العرب يمثلون جانبا كبيرا من أهالى الشرق ، وقد ارتبــط تاريخ العرب بتاريخ الشرق قرونا طويلة .

ولذا نتساءل : من هم العرب ؟ وعلى أى أساس تطلق عليهم صفة العرب ؟ أعلى أساس انحدارهم من جنس واحد ؟ أم على أساس اللغة ؟ أم على أساس الحضارة الواحدة والتكوين الفعلى المتشابه ، والنظم الاجتماعية المشتركة ؟

فى العصور السابقة للاسلام ، كان يقطن فى الجزيرة فريقان متميزان ، البدو والحضر ، وكانت كلمة (عربى) بمعناها الاتنوغرافى الضيق تطلق على البدو . ثم ظهر الاسلام ، وسار انتشـــار اللغة العربية جنبا الى جنب مع انتشار الاسلام . وبعد مائة سنة من ظهور الاسلام قامت امبراطورية عربية اسلامية تمتد من شبه جزيرة أيبريا ، فى الغرب الى شرق البحر المتوسط ثم الى شواطىء السند وبحر الخزر فى الشرق . وفى القرون التى أعقبت ذلك كان الطرفان الشرقى والعربى لهذه الامبراطورية يتراوحان بين مد وجزر .

---

(١) المصدر السابق .

ولكن الدعوة الى الاسلام والدعوة الى العروبة لم يكونا متصلين ، فقد تقدم الاسلام مسافات بعيدة الى الأمام ، واستطاع أن يتخطى الحواجز التى وقفت دونها العروبة ٠

أصبحت هناك خمس مجموعات من الأقطار ، سار فى بعضها الاسلام والعروبة فى طريق واحد ، بينما اختلفت الأوضاع فى الأقطار الأخرى ٠

أولا : فهناك أقطار فتحها العرب المسلمون ، فانتصرت فيها اللغة العربية ، وتغلبت على اللغات المحلية الأخرى ، وأصبح الاسلام هو دين الأغلبية العظمى . وهى الأقطار التى تكون العالم العربى المعاصر ٠

ثانيا : وهناك أقطار أخرى انتشر الاسلام فيها دون اللغة العربية ، مثل ايران وتركيا ، فهى دول اسلامية وليست دولا عربية ٠

ثالثا : وهناك أقطار ثالثة انحسر عنها الاسلام والعروبة ، مثل الأندلس وجزيرة صقلية ٠

رابعا : وهناك أقطار أخرى انتشر بها الاسلام نتيجة فتوح اسلامية غير عربية ، مثل فتوح الأتراك السلاجقة فى الأناضول ، وفتوح الأتراك العثمانيين فى البلقان ، وفتوح المغول فى الهند ٠

خامسا : أقطار انتشر بها الاسلام عن طريق غير الفتح العسكرى ، بل نتيجة جهود تجار ووعاظ ، كما فى أندونيسيا وماليزيا ، وهى أيضا أقطار اسلامية وغير عربية (١) ٠

أما فى تاريخنا المعاصر ، فان كل من ينتسب الى البلاد العربية ويتكلم باللغة العربية فهو عربى ، مهما كان اسم الدولة التى يحمل

---

(١) انظر محاضرات المرحوم الأستاذ ساطع الحصرى ٠

جنسيتها ، ومهما كانت الديانة التى يدين بها والمذهب الذى ينتمى اليه ، ومهما كان أصله أو نسبه ٠

ويرى المؤرخ العربى المعاصر المرحوم الأستاذ شفيق غربال(١) أن هناك أحداثا تاريخية طارئة كان من آثارها شطر العالم الاسلامى الى (شرق أقصى) يقع فى شرق العراق ، والى (وسط) يمتد من العراق الى مصر ، والى (غرب) يقع فى غربى مصر ٠ أما هذه الأحداث التاريخية الطارئة ، فهى الحروب الصليبية ، واكتساحات التتار فى الشرق ، واجلاء المسلمين عن الأندلس ، ثم مهاجمة الغرب ، ثم حركات التطويق البحرية الكبرى التى ملكت الأوروبيين آسيا والأقاليم العربية ٠

المفهوم الحضارى للشرق :

وبعد ٠٠٠ فما هو مفهوم كلمة (شرق) ؟ ونحن نرى أن هذا المفهوم لا يخضع لعامل جغرافى أو اقليمى ، ونرى أن الحضارة هى أساس المضمون والمدلول ٠ فللشرق حضارته ذات الطابع المتميز الخاص ،مما يختلف كثيرا عن ألوان الحضارات الأخرى٠ان من يرحل بين الدول العربية ، والدول الاسلامية ، ودول الشرق الأقصى ، ودول جنوب شرق آسيا ، يجد تقاربا كبيرا بين المجموعات البشرية الكثيرة التى تعيش فى هذه الأراضى الشاسعة ، قد يختلفون فى صفاتهم الجنسية بحكم البيئة الجغرافية ، وفى لغاتهم وأديانهم ، ولكن أساليب الحياة ، والنظرة الى الحياة ، والأفكار ، قد تكون متقاربة ٠

---

(١) فى مقال له بمجلة الهلال فى أول يناير ١٩٥٥ بعنوان (الجامعة الاسلامية واتحاد العرب) ٠

وهذا التقارب فى رأينا يرجع الى وحدة التاريخ المشترك ، ولا نقصد الوحدة الكاملة • فقد ظل العالم قرونا طويلة سحيقة يعيش فى رقعة صغيرة من الأرض ، يعيشون فى وسط وجنوب وغرب آسيا ، وفى شمال أفريقية ، وفى جنوب أوروبا • فلم تكن الأمريكتان أو استراليا قد تم اكتشافهما بعد ، كما كان شمال أوروبا ووسط وجنوب أفريقية غير عامرة بالسكان • ولقد عاشت الأقوام فى هذه الرقعة المحدودة من العالم دهورا طويلا معا ، وتفاعلوا وامتزجوا حضاريا وفكريا واقتصاديا وسياسيا ، مما أوجد نوعا من التقارب والتجانس •

ان وحدة التاريخ ، أو الوحدة النسبية ، تولد تقاربا فى العواطف والنزعات ، وتماثلا فى الأفكار والتقاليد والعادات . والذكريات التاريخية تقرب النفوس والأفكار وتكون بينها نوعا من القرابة المعنوية وان هذه الوحدة التاريخية النسبية بين أبناء الشرق هى التى أعطتهم لونا وطابعا حضاريا واحدا •

لقد كانت الحضارات فى العالم قبل الفتوحات العربية الاسلامية متقاربة الى حد كبير ، فقد اقتبس الاغريق كثيرا من ألوان حضارتهم من المصريين والفينيقيين والكلدانيين والفرس . وعرف الرومان الحياة المدنية خلال صراعهم مع القرطاجنيين • وحينما أصبحت الدولتان الفارسية والرومانية أكبر دول العالم القديم ، حدث امتزاج حضارى بين الدولتين رغم عدائهما وتنافسهما فى مجالات السياسة ، وكان الصدام الحربى من عوامل الاتصال الحضارى بين الفرس والروم ، وقد غزت كل دولة أراضى الدولة الأخرى •

ثم بدأت الفتوحات العربية ، وحمل العرب الفاتحون الحضارة

الزاهرة التى أتى بها الدين الاسلامى ، واتصلت الحضارة الاسلامية بالحضارات العالمية الموجودة ، وحدث فعلا امتزاج حضارى كبير ·

لقد كان الطريق ممهدا أمام امتزاج الحضارات ، فقد كان العرب عند الفتح أميون فاضطروا الى الاعتماد على غيرهم فى الادارة والكتابة والشئون المالية ، وسرعان ما تأثروا بحضارة الهلال الخصيب ، وأصبحت الحضارة العربية مزيجا من حضارات مختلفة (١) ·

لم يجد العرب الفاتحون بأسا من اقتباس الحضارات المختلفة التى وجدوها فى الأقطار التى فتحوها ، ولكن العرب ـ وهم العنصر القوى الفاتح ـ عدلوا هذه الحضارات بما يلائم الدين الاسلامى ، وبما يتفق والعقلية والتقاليد العربية · وشمل اقتباس العرب من الفرس والروم جميع النواحى ، سواء كان ذلك فى نظم الحكم والسياسة ، أو فى الحرف والمهن ، أو فى اللغة والآداب ، بل فى وسائل الترف والزينة أيضا (٢) ·

ولعبت اللغة العربية دورا كبيرا فى مزج الحضارات والعناصر المتنافرة فى الأقطار المفتوحة · فقد أدى تعميم استخدام اللغة العربية فى هذه الأقطار الى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجا قويا فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم (٣) ·

وأدى انتشار الاسلام أيضا الى امتزاج واندماج العرب بالعناصر الأخرى فى الأقطار المفتوحة · فقد منح الاسلام العناصر المختلفة

---

(١) الدكتور عبد العزيز الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٦ ـ ٧ ·

(٢) انظر كتابنا (العرب والحضارة) ص ٧٥ تجد كثيرا من التفاصيل ·

(٣) توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام (ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وآخرين) ص ٦٨ ·

التى كانت تسكن هذه الأقطار ما تحتاجه من المثل العليا التى اكتسبوا بها من الحمية ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم في سبيله. وقد منحت هذه المثل العليا أهالى الأقطار مشاعر مشتركة وآمالا واحدة وايمانا عميقا ، وكانت الدولة التى اشتقت منه جميع نظمها السياسية والاجتماعية (١) .

وكان للفتوح العربية طابع خاص لا نجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد الحرب ، فالبرابرة الذين استولوا على العالم الرومانى ، والترك والمغول وغيرهم ، وان استطاعوا أن يقيموا دولا عظيمة ، الا أنهم لم يؤسسوا حضارة . وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التى قهروها . ولكن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها ، وأقبل أهالى الأقطار المفتوحة على هذه الحضارة ، ولذا ظل النفوذ العربى بها ثابتا (٢) .

أصبحت الحضارة العربية الاسلامية تسود معظم أرجاء العالم القديم طوال قرون كثيرة ، فقد امتدت فى وسط آسيا ، وشمال الهند ، وغرب وجنوب آسيا ، وشمال أفريقية ، وجنوب غرب أوروبا ، وجميع جزر البحر المتوسط . مما أدى الى وحدة حضارية عالمية ، منحت هذه الأراضى الشاسعة لونا حضاريا متجانسا ثم تقلص نفوذ العرب السياسى عن معظم أرجاء أوروبا ، ولكن ذلك لم يكن يعنى نهاية الحضارة العربية فى أوروبا ، فقد ظلت التأثيرات العربية باقية ، واستمر الطابع العربى قائما فى كل مكان فى القارة .

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر) ص ٧١٨ ـ ٧١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

وأصبحت حضارة العرب أساسا أقام الأوروبيون عليه حضارتهم الحديثة (١) .

لم يكن امتداد الاسلام والعروبة حركة فتوح أو غزوات ، ولم يكن لانشاء امبراطورية عربية يسودها العرب المسلمون ، وانما كان فى الواقع حركة نهضة تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضا . وكان العربى الذى حمل اعباء الفتوحات ، وهاجر الى البلاد المفتوحة شخصا ممتازا خبيرا بالتقاليد واقتباس ما ينسبه ويفيده . فكان لا يستقر الى جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطى ، ويصاهرهم . ورغم الأصل البدوى ، فقد كان يحب اللين والترف ويتذوق الجمال ، ولذا لم يخرب العرب المدن التى فتحوها ، بل ظلت هذه المدن عامرة تنبض بالحياة والحضارة (٢) .

ومرت القرون ، وظهرت الدولة العثمانية التى نجحت فى أن تمد نفوذهـا الى كثير من أقطار الشرق ، وخاصـة العالم العربى الاسلامى . وقد أقام العثمانيون حكمهم على أساس ألا يتدخلوا فى حياة الناس ونظمهم الاجتماعية ، الا بقدر ، فما دام العرب على ولائهم وخضوعهم منصرفين الى حياتهم المألوفة ويقدمون الأموال التى تطلب منهم ، ظلوا بمأمن من سلطان الدولة ، لا تمتد اليهم أيدى عمالها . وقد حفظت هذه الطريقة للعرب قوميتهم وكيانهم وحضارتهم . ولذا فان الوحدة الحضارية التى شهدها الشرق ، وخاصة الشرق العربى ، قبل الفتوحات العثمانية ظلت قائمة طوال العصر العثمانى الذى استمر أربعة قرون ، حتى مطلع القرن العشرين .

---

(١) انظر كتابنا (العرب فى أوروبا) تجد كثيرا من التفصيلات التاريخية .

(٢) دكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤١٩ .

من هو المستشرق ؟ :

واذا كان من العسير ـ كما رأينا ـ وضع تحديد ثابت لمفهوم كلمة (شرق) ، فانه من الصعوبة بمكان أيضا تعريف (المستشرق) تعريفا قاطعا شاملا • ولكن يمكننا أن نقول ان « المستشرق هو عالم غربى يهتم بالدراسات الشرقية » • فلابد أن يتوافر فى هذا المستشرق الشروط الواجب توافرها فى العالم المتخصص المتعمق ، حتى ينتج ويفيد البشرية والحضارة بانتاجه العلمى • ولابد أن ينتمى هذا العالم الى الغرب ، ولو كان هذا العالم يابانيا أو أندونيسيا أو هنديا لما استحق أن يوصف بالمستشرق ، لأنه شرقى بحكم مولده وبيئته وحضارته • وقد تكون الدراسات الشرقية التى يقوم بها المستشرق تاريخا أو فلسفة أو آثارا أو اقتصادا ولكنها ترتبط بالشرق •

وليس من الضرورى أن يرحل هذا المستشرق الى الشرق ، ليعيش فيه ، أو ليتطبع بطباعه أو حضارته ، فقد يقوم بدراساته فى جامعته الغربية ، أو فى وطنه • وان كان رحيله الى الشرق يجعل دراساته أكثر فائدة وأقرب الى الواقعية والحقيقة • وليس من الضرورى أن يعتنق هذا المستشرق الاسلام أو أحد الأديان السائدة فى الشرق ، كما ليس من الضرورى أيضا أن يتحدث باللغات الشرقية ، وان كان الالمام بها أو اجادتها يعينه كثيرا فى دراسته وأبحاثه •

المستشرقون والتاريخ الاسلامى

وحينما بدأ الاستشراق ، كان غالبا هواية يهواها بعض الأوروبيين الذين جذبهم الشرق بسحره وأسراره ومميزاته الحضارية الخاصة •واقترن الاستشراق أحيانا بحب الرحلات الى الشرق ، وأصبحت كتب هؤلاء النفر من المستشرقين أقرب الى الكتب

الوصفية أو كتب الرحلات ، فاهتم المستشرق بحشد مؤلفاته بكل ما هو غريب أو عجيب مما يثير تشويق الأوروبى ويدفعه للاطلاع على هذه الصورة من الحياة التى تخالف صور حياته المألوفة • كما اتجه بعض الأوروبيين أيضا نحو الاستشراق ، بدافع من التعصب الدينى أو التعصب القومى • ولكن الاستشراق فى العصر الحديث أصبح حرفة ، واتخذ الطابع العلمى المنظم ، وأصبح له قواعده وسيلـــه المنهجيه ، نتيجه التطور العلمى ، واختـلاف الظروف السياسية فى العالم ، ونهضة الشرق ، وتطور العلاقات بين الشرق وعالم الغرب • ولذا أصبح المستشرق فى القرن العشرين يختلف تماما عن المستشرق فى العصور الوسطى ، أو فى مطلع العصـور الحديثة •

وهكذا خضع تحديد مفهوم (المستشرق) لسنة الحياة والتطور والارتقاء ، ولاختلاف ظروف الزمان والمكان ، ولتطور العلاقات الدولية ، والتقدم العلمى والحضـــارى ، مما يدفعنا الى دراســـة المراحل المختلفة التى مر بها الاستشراق ، منذ ظهوره على المسرح العالمى ، حتى السبعينات من القرن العشرين ، ثم القاء نظرة على مستقبل الاستشراق •

مراحل الاستشراق فى التاريخ الاسلامى

آراء حول نقطة البداية :

هناك آراء كثيرة حول البداية ونقطة الانطلاق ، فهناك من يربط بين دراسة التاريخ العربى والاسلامى فى أوروبا وبداية الأطماع الاستعمارية الأوروبية فى العالمين العربى والاسلامى فى أواخر القرن الثامن عشر ، حينما ضعفت قبضة الدول العثمانية، وبدأت الدول الأوروبية تنظر بعين الطمع فى ممتلكات ذلك «الرجل المريض» قبل أن تعلن وفاته وترث تركته .

فقد حرصت الدولة العثمانية فى أول عهد حكمها للبلاد العربية والاسلامية ، على أن تسدل ستارا كثيفا يحجب أنظار الأوروبيين عن هذه البلاد ، حتى لا تمتد اليها أصابع الاستعمار ، وان كان هذا الستار قد نجح فترة طويلة فى أن يحمى البلاد

العربية والاسلامية من الأطماع الاستعمارية الا انه منع أى لون من ألوان الاتصال الحضارى ، الذى قد يتيح الفرصة للعلماء الأوروبيين لدراسة تاريخ الشرق وحضارته ، كما جعل العرب والمسلمين بمعزل عن حضارة أوروبا ، وقد كانت هذه القارة تختار عصور النهضة بعد تخليها عن طابع العصور الوسطى وحضارتها .

وهناك رأى يجعل الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ هي بداية الاستشراق الايجابى الحقيقى ، حينما صحب نابليون معه على ظهر أسطوله عددا كبيرا من العلماء ، الذين تخصصوا فى فروع عديدة من المعارف ، كما صحب مطبعة عربية . وقد بدأ هؤلاء العلماء الفرنسيون نشاطهم منذ اللحظة الاولى التى وطأت أقدامهم فيها مصر ، وأنتجوا انتاجا حضاريا ضخما ، لا يزال حتى اليوم منبعا فكريا ، ورغم اخفاق الحملة الفرنسية سياسيا وعسكريا ، الا أنها نجحت حضاريا ، رغم قصر مدة بقاء الحملة فى مصر وتركت الحملة بعد جلائها عن المستشرقين فى العهود التالية .

وكانت رغبة كثير من الدول العربية والاسلامية فى التحرر من الحكم العثمانى ، دافعا للعرب وللمسلمين على المطالبة باقتباس بعض معالم الحضارة الأوروبية التى لا تخالف عقائد العرب أو تقاليدهم . فقد اتصفت فترة الحكم العثمانى بركود حضارى أدى الى جمود فكرى ، فقد كان هذا الحكم العثمانى نكسة شديدة أصابت الحضارة العربية بعد عهود طويلة من الازدهار الحضارى ، وكانت أوروبا فى تلك العهود تعانى من ظلام الجهل والتأخر . ولذا رأى كثير من العرب والمسلمين أن يسيروا فى نفس الطريق الحضارى الذى سار الأوروبيون فيه قبلهم حتى

بلغوا ما وصلوا اليه من مظاهر حضارية راقية • وقد ظهر مفكرون مسلمون ، مثل جمال الدين الأفغاني ، ينادون بأن اقتباس الحضارة الأوروبية هي الوسيلة المثلى لرقي العالم الاسلامي والخروج به الى عالم النور والحضارة الزاهرة •

البداية الحقيقية :

هذه هي بعض الآراء عن بداية الاستشراق ، ولكننا نرى أن الاستشراق قد بدأ منذ قرون كثيرة سابقة للقرن الثامن عشر • بل نرى أن الاستشراق قد أرسى قواعده منذ العصور الاسلامية المبكرة • وفي رأينا أن الاستشراق هو « اهتمام بالدراسات الشرقية » ، وقد يأخذ هذا « الاهتمام » صورة الأخذ أو العطاء • والفكرة الشائعة بين الكثيرين أن الاستشراق هو أن يقدم المستشرقون انتاجهم الفكري لأبناء الشرق ، ولكننا نرى أن ذلك هو جانب واحد من الاستشراق ، ونرى أن اقدام الغربيين على أن ينهلوا من منابع الحضارة الشرقية هو استشراق أيضا ، فهم يجعلون الدراسات الشرقية موضع دراساتهم واهتماماتهم والحضارة في جوهرها وحقيقتها عالمية ، فهي ملك للأسرة البشرية الكبيرة جمعاء ، والحضارة أيضا أخذ وعطاء ، واقتباس بعض معالم الحضارات العالمية هو في الحقيقة تجديد لدماء الحضارة المحلية ، ودافعا لها للتطور والتقدم •

وعلى هذا الأساس،فاننا نرى – دون مبالغة – أن الاستشراق قد بدأ في أوروبا نفسها ، في العصور الوسطى الاسلامية ، حينما كان العرب المسلمون يحكمون أرجاء كثيرة في شبه جزيرة أيبريا (بلاد الأندلس) ، وفي فرنسا وايطاليا وصقلية وجزر البحر المتوسط • فقد كانت أوروبا قبل الفتوحات العربية

والاسلامية تسبح فى دياجير الظلام ، وقد بددت الحضارة العربية الاسلامية هذه الدياجير الحالكة ، وأصبح العرب أساتذة للأوروبيين . فقد أصبح العرب فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين حمله مشاعل الثقافة والحضارة في ربوع العالم أجمع ، وكانت الحضارة العربية هي أساس النهضة فى أوروبا . وقد كتبت أسبانيا العربية الاسلامية صفحة من أروع صفحات تاريخ الحضارة فى القارة الأوروبية فى العصور الوسطى . لقد أقبل الأوروبيون ينهلون من منابع الحضارة الغربية ، وقدم طلاب العلم من كل أرجاء أوروبا على بلاد الأندلس يدرسون فى جامعاتها ومعاهدها .

أفلا يمكن أن نسمى ذلك أستشراقا ؟ فاننا نرى أن الأوروبيين حينما أقدموا على الاقتباس من حضارة الشرق ، العربية والاسلامية ، وحينما أصبحت هذه الحضارة الشرقية هى أساس حضارة القارة الأوروبية ، أصبح الأوروبيون حينئذ مستشرقين. فقد وجد الأوربيون فى حضارة العرب ما يناسب احتياجاتهم ويسد الفراغ الموجود ، وكانت الحضارة العربية لها من المرونة والواقعية ما يجعلها تناسب الشعوب الأوروبية على اختلاف بلادها وأجناسها وثقافاتها .

وقد اتخذ اقبال الأوروبيين على الاستفادة من الحضارة العربية شكلا علميا منظما ، مما يجعله استشراقا على أسس علمية ثابتة واضحة . فقد اهتمت الدول الأوروبية بارسال بعثات علمية الى بلاد الأندلس العربية لدراسة العلوم والفنون والصناعات فى معاهدها الكبرى . نتيجة ذيوع شهرة الأندلس وحضارتها الزاهرة في انجلترا وفرنسا وهولندة وتوسكانا .

وهناك أمثلة كثيرة توضح هذا الاستشراق العلمى المنظم ، نذكر منها البعثات الثلاث التى قدمت الى الأندلس ، وأولها بعثة فرنسية برئاسة الأميرة اليزابيث ابنة خالة لويس السادس ملك فرنسا • والبعثة الثانية انجليزيه وعلى رأسها الأميرة (دوبان) ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة (ويلز) • أما البعثة الثالثة فكانت أسبانيه ، وبعضهـا من مقاطعات (سفوا) و (البافر) و (ساكسونيا) و (الرين) وقد بلغ عدد افرادها (٢١٣ هـ - ١٢٩٣ م) سبعمائة طالب وطالبة •

كما بعث الملك فيليب البافارى الى الخليفة الأموى بالاندلس (هشام الأول) يسأله السماح له بايفاد هيئة تشرف على حالة بلاد الأندلس ودراسة أنظمتها وشرائعها وثقافة مختلف الاوساط فيها ، ليتمكن من اقتباس المثمر المفيد من ذلك لبلاده ، ووافق الخليفة على طلبه • كما بعث الملك الجرمانى وفدا برئاسة وزيره الأول (ويلمبين) ، وقد لقبه الأندلسيون (وليم الأمين) لأنه كان أمينا فى نقل ما رآه من حضارة الأندلس وعظمتها الى الملك، وحثه على الاستمرار فى انفاذ البعثات العلمية لاقتباس معـالم الحضارة العربية •

وتوالت البعثات على الأندلس ، فأرسل ملك انجلترا جورج الثانى ابنة أخيه الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من ١٨ فتـاة من بنات الأمراء والأعيان الى اشـبيلية يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى النبيل (سفليك) • وقدمت بعثات أخرى من فرنسا وايطاليـا والأراضى الواطئـة ، وامتلأت بهـم المعاهـد غرناطة وأشبيلية (١) •

---

(١) طه المدور : الديانات والحضارات ص ٧٠ •

فقد حفظ عرب الأندلس فى القرن العاشر الميلادى العـلوم والآداب التى أهملت فى كل مكان ، حتى فى القسـطنطينية . والى بلاد الأندلس كان يقصـد الأوروبيون المتعطشـون للعلم والمعرفة .. كان منهم (جربرت) الذى أصبح بابا فى سنة ٩٩٩ م باسم (سلفستر الثانى) . ولم يظهر فى أوروبا ، قبل القـرن الخامس عشر من الميلاد ، عالم لم يقم بدراسة الكتب العربية . وظلت ترجمات كتب العرب ، ولا سيما الكتب العلمية ، مصدرا وحيـدا تقريبـا للتدريس فى جامعاتهـا خمس قرون أو ستة قرون (١) .

ويرى الأب (خوان أندريس) أن قيام التأليف العلمى فى أوروبا فى الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية مرجعه الى العرب، ويرى أن روجر بيكون وفتيليون قد استفادا من بصريات الحسن بن الهيثم ، وأن ليوناردو البيزى أخذ عن العرب الجبر ، وأخذ أرنالدو الطب والكيمياء ، كما نهل أعلام الطب الأوروبى من كتب العرب وخاصة الزهراوى ، كما استوحى (كلبر) كشفه لأفلاك الكواكب الدائرية من كتاب البطروجى (٢) .

استفاد الأوروبيون من الحضارة العربية الاسلامية . بينمـا لم يستفيدوا شيئا يذكر من الحضارتين اليونانية والرومانية . اما الحضارة اليونانية فلم تكن الا عبـارة عن جامعة يونانية تلقن الشعب الأغريقى العلوم الفلسفية التى تحتاج الى عقول مؤهلة من قبل لتلقفها وتفهم مراميها ، ولذا عجزت عن أن تصل الى أوساط

---

(١) انظر كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون . وكتابنا العرب فى أوروبا نجد كثيرا من التفاصيل التى توضح أثر حضارة العرب فى حضارة أوروبا .

(٢) بالنثيا : الفكر الأندلسى ص ٣٣٣ .

أوروبا . كما عجزت شعوب هذه القارة الجاهلة عن هضم الحضارة اليونانية .

أما الرومان فقد وصفهم المؤرخ الفرنسي (سينيبه بوس) بأنهم كانوا سواء في المشرق أو المغرب فاتحين مستعمرين لايفكرون الا في اقامة الأبنية الضخمة والملاعب الواسعة لاظهار قوتهم وعظمتهم للأمم الواقعة تحت استعمارهم ، ثم البحث عن منابع المياه لتنظيم وسائل الري لأجل استثمار الأرض لمصلحتهم . ولكن عندما نريد أن نبحث في النواحي الأخرى التي يجب أن تستفيد الشعوب المستعمرة منها كالنمو الاجتماعي والارتقاء العلمي والأخلاقي ، فلا نجد الا آثارا لا تكاد تذكر .

استشراق من نتاج التعصب الديني :

والى جانب تلك الصورة التي رأيناها من صور الاستشراق المبكر ، نجد صورة أخرى ، تختلف كثيرا في أهدافها وأبعادها عن الصورة الأولى . فقد شهدت العصور الوسطى لونا آخر من الاستشراق ، كان من نتاج التعصب الديني الذي كان من خصائص تلك العصور الوسيطة . فقد أقبل بعض الأوروبيين على الاستشراق من أجل الكيد للاسلام والعروبة ، وكنتيجة للتعصب ضد المسلمين والعرب . وهي حركة واسعة منظمة تشبه في بعض جوانبها وأهدافها ، تيارات الشعوبية وحركات الزنادقة التي شهدها الشرق الاسلامي في العصر العباسي الأول (١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ) .

وكان هذا الاستشراق الذي يصور التعصب الديني ، هو في الحقيقة صورة للعداء التقليدي الذي ساد في العصور الوسطى

بين الشرق والغرب · ويقول كرد على (١) عن هذا العداء : وأهم أسباب الجفاء بين الغربيين والشرقيين فى القرون الأولى من الهجرة، كون الاسلام جاء لهداية البشر كافة ، فأتى على الوثنية فى البلاد التى انتشر سلطانه فيها ، ودخل فيه من الصابئة واليعاقبة والنساطرة والمجوس واليهود وغيرهم جمهور كبير ·وخافت أوروبا النصرانية من تسربه الى ربوعها ، فاتفقت كلمة الملوك ورجال الدين على حربه ، حتى وقفت دعوته عند جزيرتى الأندلس وصقلية وما اليهما من أرض الفرنجة ، ثم نشأت الحروب الصليبية ودامت قرنين كاملين ، وقدمت الجيوش الصليبية الى الشام ومصر ، حتى كتبت الغلبة الأخيرة للاسلام فى أرض الشام ·

يحدد المستشرق (رودى بارت) (٢) بداية هذا النوع من الاستشراق بسنة ١١٤٣ م حين تمت ترجمة القرآن لأول مرة الى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب (بيتروس فينيرا بيليس) رئيس دير كلونى · ويرى (بارت) أن الهدف من هذا النوع من الاستشراق هو (التبشير) ، واقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الاسلام ، واجتذابهم الى الدين المسيحى ·

ولم تقم هذه الصورة من الاستشراق على أساس علمى منظم، حقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت فى العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى فى تعرفهم على الاسلام وكانوا يتصلون بها على نطاق كبير ، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعى نوعا ما ، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل فى أن هذا الدين المعادى للمسيحية لا يمكن أن يكون فيه خير · وهكذا

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣ (طبعة القاهرة ١٩٥٠) ·

(٢) الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الألمانية ص ٩ ·

كان الناس لا يولون تصديقهم الا تلك المعلومات التى تتفق مع هذا الرأى المتخذ قبل ، وكانوا يتلقفون بينهم كل الأخبار التى تلوح لهم مسيئة الى النبى العربى والى دين الاسلام (١) ٠

ومن أفضل الكتب التى درست هذا الاستشراق النابع من التعصب الدينى فى العصور الوسطى ، كتاب (الحضارة الاسلامية) للمؤرخ الهندى المسلم (صلاح الدين خودابخش) والذى قمنا بترجمته الى اللغة العربية سنة ١٩٦٠ ٠ ويرى أن هذا التعصب الدينى كان من اسباب العداء التقليدى بين الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية ٠ وقد أدت العلاقات المحدودة بين المسلمين والبيزنطيين فى القرون الأولى من العصر الوسيط الى أن الاسلام ظل غير معروف لمعظم أبناء المجتمع المسيحى ، كما ظل محمد صلى الله عليه وسلم ، فى الأدب الأوروبى شخصية غامضة ٠

ويرى (خودابخش) (٢) أن العامل الرئيسى فى جهل المسيحيين فى العصور الوسطى بالاسلام والرسوم هو سيطرة الكنيسة على أهالى العصور المظلمة ، وقد أدى انتشار الاسلام وقوته الى شعور أوروبا بالخطر ، وظن البعض أن الاسلام قد أصبح خطرا على المسيحية ٠ وكان هذا الشعور بالخطر هو الشرارة التى أشعلت النيران ، وبدأت الكنيسة الكاثوليكية نشاطها المعادى للاسلام ٠ وكانت الكنيسة فى بداية الامر ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٠ ٠

(٢) خودابخس : الحضارة الاسلامية ص ٣٥ (طبعة الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٦٠) ، ترجمة الدكتور على حسنى الخربوطلى . وظهرت طبعته الثانية فى بيروت سنه ١٩٧٠ (دار الثقافة) ٠

تظن أن انتصار الاسلام ما هو الا سحابة عن قريب تنقشع ، ولكنها سرعان ما أدركت أن أنتصاره كان كاملا مطلقا ٠

وبمرور السنين ، زاد خطر المسلمين على الدول المسيحية ، وبدأ المسيحيون يبحثون حولهم عن قوة تستطيع ان تساعدهم لوقف هذا الزحف المستمر للاسلام ٠ ونهضت الكنيسة لتواجه تهديد الاسلام للمسيحية ، فلم تعد تتبع سياسة اللين والتسامح ٠ واذا أدركنا مدى سيطرة الكنيسة ونفـوذها على مسـيحيي العصور الوسطى ، وتأثيرها على أدب هذه العصور فاننا لا ندهش اذا لمسنا ما نال الاسلام طوال العصور الوسطى من هجوم وقدح، وذلك نتيجة منطقية للظروف السائدة فى تلك العصور ٠

ومن سوء الحظ أيضا ،أن أقطار غرب أوروبا كانت معلوماتها الاولية عن الاسلام ، عن طريق مصادر غير صادقة ، وهى المصادر البيزنطية ٠ فقد نظر البيزنطيون الى الاسلام نظرة عداء ، وهذا العداء يبدو منطقيا اذا تذكرنا أن المسلمين قد انتزعوا من الدولة البيزنطية (أى الدولة الرومانية الشرقية) أحسن ولاياتها ، كما أن الاسلام الذى يدعو الى التوحيد يعارض عقيدة البيزنطيين التى تدعو الى التثليث ٠ ولذا لا غرو أن اعتبر البيزنطيون الاسـلام خطرا على عقيدتهم ٠ ولكن الدولة البيزنطية كانت تعـانى من الضعف السياسى ما جعلها عاجزة عن الوقوف فى وجه المسلمين ، فوجهت كل همها الى تجريح عقيدتهم (١) ٠

تطور الاستشراق فى العصور الوسطى :

أدى قيام الحروب الصليبية الى ازدياد روح التعصب الدينى وانعكست هذه الروح على (الاستشراق) ٠ وقد بدأ الجاحدون

---

(١) خودابخش : الحضارة الاسلامية ص ٣٩ ٠

للاسلام من الاوروبيين يتعلمون اللغة العربية ، لا حبا فيها ، ولكن ليتخذوها وسيلة الى فهم القرآن ، وسلاحا فى مناقشته ، وقد أدركوا حينئذ أن المناقشة على علم ، أجدى وأقوى من المناقشة بغير سلاح ولا عدة ٠

والواقع أن هذه الحملة التى كانت ثمرة الحروب الصليبية قد أحسن تنظيمها ، وكانت أشبه بحركة مقاومة علمية للاسلام ٠ واذا كانت الحروب الصليبية قد آبت بما آبت به من الاخفاق بعد أن استمرت قرنين من الزمان ، ولم ينجح السلاح ولا القوة ولا العدد الكثير ولا الحملات المسلحة فى دعم الامارات الصليبية اللاتينية التى أقامها المتدفقون من الغرب على بلاد العرب والاسلام، فان سلاحا آخر غير الحديد والنار كانت تعده أوروبا لمحاربة الاسلام ، ذلك هو سلاح المقاومة لهذا الدين بوسائل علمية وعن طريق الهدم المعنوى فى حركة ظاهرها العلم والبحث وباطنها المكر والخبث (١) ٠

وكانت الحروب الصليبية من منابع الاستشراق ، وكانت هذه الحروب فرصة لاتصال الغرب بالشرق ، وحدث الغرب نفسه بأن له مع الشرق تاريخا طويلا ، فكان لا بد للغرب المعتدى من معرفة ما يمكنه معرفته من أحوال هذا الشرق ومداخل السيطرة عليه والاستبداد به ، ومن أهم الوسائل الموصلة الى ذلك دراسة ما يتعلق بالشرق لاستغلاله من جهة ، ولتحوير ما يلزم للغرب تحويره من جهة أخرى ٠

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والجحود، ص ١٦ ــ ١٧ (طبعة القاهرة ١٩٦٠) ٠

كما أن هذه الحروب قد أطلعت الغربيين عن طريق الاتصال بالشرق من جهة ، والمقارنة بين الاسلام ودينهم من جهة أخرى ، على مواطن في دينهم تحتاج الى مراجعة أو تعديل ، وهذا ما سماه بعضهم بحركة الاصلاح الديني ، وهذه الحركة استدعت مراجعة أصول الدين عندهم ، فاستدعت المراجعة نوعا من الدراسات العبرانية ، ثم انتقلوا الى الدراسات العربية ، ثم كانت هناك الرغبة القوية فى التبشير بالمسيحية فى الشرق ، فاستلزم هذا دراسة اللغة العربية على أيدى المستشرقين ، لتكون تلك الدراسة معوانا على النجاح فى هذا التبشير ، ومن هنا تلاقت وجهة الاستعمار مع وجهة التبشير مع وجهة الاستشراق (١) ٠

لم تكن الحروب الصليبية فى الحقيقة حروبا دينية ، بل هى الحلقة الأولى فى سلسلة الأطماع الأوروبية فى الشرق العربى ، وهى حركة أوروبية اعتدائية توسعية استمرت جذورها من قديم التنافس العميق بين الشرق والغرب ، ومن توغل الفتوح الاسلامية الأولى فى أطراف الامبراطورية البيزنطية ، وفى أجواف الممالك المسيحية الغربية فى أسبانيا وفرنسا وايطاليا وجزر البحر المتوسط ٠ وتضاف الى هذه العوامل العالمية الكبرى عوامل أوروبية محلية ، وهذه ترجع الى القرن الحادى عشر الميلادى والى صميم التاريخ الأوروبى فى ذلك القرن (٢) ٠

كان من جراء الفتوحات الاسلامية لقسم غير قليل من

---

(١) أحمد الشرباصى : التصوف عند المستشرقين ص ٧ ــ ٨ (سلسلة الثقافة الاسلامية) ٠

(٢) انظر مقدمة كتاب (حملة لويس التاسع على مصر) للدكتور محمد مصطفى زيادة ٠

المقاطعات الأوروبية أن تفتحت أذهان شعوبها الى وجوب نبـــذ الاختلافات والحروب الدينية القائمة فيما بينهم وطرحها جانبـا للعمل على جمع صفوفهم لمقاومة تيار الخطر الاسلامى الذى داهمهم بفتوحاته وهم فى غفلة عن ذلك ، وراح القوم ينادون تحت زعـامة البابا (أورين الثانى) سنة ١٠٩٦ م الى اعلان حرب صليبية ٠

ومن عوامل الحرب الصليبية رغبة البابوات فى توجيـــه الفرسان لقتال المسلمين بدلا من الانصراف الى الحروب الداخلية، ومحاولة الاستيلاء على ما بيد المسلمين من الممتلكات ٠ ومنهـــا مطامع الأمراء والنبلاء على انشاء امارات مســـتقلة فى الشرق ٠ وطمع المدن الايطالية فى الحصول على منتجات الشرق ومتاجره ٠ ومن هذه العوامل أيضا انتشار الأوبئـــة والمجاعات فى غــرب أوروبا (١) ٠

واذا كان أولئك المغامرون قد حرصوا على الصاق شـــارة الصليب على ثيابهم ، مما أكسب حركتهم اسم الحروب الصليبية فى التاريخ ، فانه ليس هناك ما يثبت أن الصـــليب والكنيسة والدين كانت القـــوى الكبرى التى حركت مشـاعرهم وجعلتهم يتحمسون لنداء البابوية ٠ وربما كان أقرب الى الصواب ما قاله أحد كبار المؤرخين الغربيين المحدثين – وهو الأستاذ طومسون – من أنه يعتبر الحروب الصليبية أول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الأوروبى فى أواخر العصور الوسطى (٢) ٠

---

(١) الدكتور الباز العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ص ٩ (سلسلة ألف كتاب) ٠

(٢) دكتور سعيد عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصـــليبية ص ١٩١ (المكتبة الثقافية) ٠

أدت الحروب الصليبية الى انتعاش الاستشراق ، فقد أدت الى اتصال حضارى واسع النطاق بين الشرق والغرب • ولكن الشرق لم يستفد شيئا من قدوم الصليبين ، بل استفاد الصليبيون الكثير ، اذ نهلوا من منابع الحضارة الاسلامية التى لا تنضب ، فقال (جوستاف لوبون) (١) : كان الشرق يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب ، وأما الغرب فكان غارقا فى بحر من الهمجية • ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يفيد الشرق ، ولم ينتفع الشرق منهم بشىء من الحقيقة ، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها فى قلوبهم الازدراء للغربيين على مر الأجيال •

قبل الحروب الصليبية كان لا يعرف الشرق من الغربيين غير أفراد أذكياء رحلوا فى التجارة ، أو جاءوا الى فلسطين للزيارة• أما فى هذه الحروب فقد عرفوا الشرق الاسلامى ، فرأوا المسلمين فى عقر دارهم ، وحققوا أنهم ممتازون بصفات حربية وأدبية وعلمية واجتماعية ، رأوا أمة تحررت من قيود رجال الدين ، وأنها أمة من طراز آخر •

اقتبس الصليبيون كل ما وسعته قرائحهم وهضمته عقولهم من الحضارة العربية ، مما أدى الى رقى شئون أوروبا العمرانية والزراعية والعلمية والفنية والتشريعية • وكانت الحروب الصليبية وما أدت اليه من اطلاع الصليبين على الحضارة الاسلامية هى الخطوة الأولى نحو عصر النهضة فى أوروبا • فيقول (لوبون): ان الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش وأعدوا النفوس الى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التى أخذت جامعات أوروبا تعول عليها فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم •

---

(١) حضارة العرب ص ٣٣٤ •

الاستشراق فى العصر العثمانى :

وبعد ظهور الدولة العثمانية وتوسعها في القارة الأوروبية، دخل الاستشراق فى مرحلة متميزة · فقد ازدادت روح التعصب الصليبية · وقد اعترف بذلك (جوستاف لوبون) فقال : « لا جرم أن أشياع محمد كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوروبا ، فكانوا بتهديدهم الغرب بسلاحهم فى عهد شارل مارتل ، وفى الحروب الصليبية ، وبعد استيلاء العثمانيين على الآستانة ، يذلوننا بحضارتهم السامية الساحقة · ولقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا ، والنقمة على الاسلام وأشياعه عدة قرون ، حتى أصبحت جزءا من نظامنا » ·

وأوضح المؤرخ الهندى المسلم (خودابخش) (١) أثر حقد الأوروبيين على العثمانيين فى ازدياد الاستشراق وروح كراهية الاسلام والمسلمين ، فقال : حينما ظهر الأتراك العثمانيون بمظهر حماة الاسلام ، بعد سقوط الخلافة فى بغداد ، بدأ دور جديد من صراع الاسلام والمسيحية · أما الكنيسة الغربية ، فقد دفعها حرصها على انتشار العقيدة الكاثوليكية ، لاخوتها وغيرتها على الدولة البيزنطية ، الى تنظيم حملات صليبية للانتقام من الأتراك لما اقترفوه ضد المسيحين ، وكان غرض هذه الحملات الحقيقى مقاومة الاسلام المتزايدة ·

ويرسم (كرد على) (٢) صورة لأحقاد أوروبا على العثمانيين مما أدى الى تعصب فكرى ودينى وقومى فيقول : وبديهى بعد هذه الطوائل والأحقاد التى طالت لياليها السود ، خصوصا بعد أن هزت

---

(١) خوادبخش : الحضارة الاسلامية ص ٣٩ ·

(٢) كرد على : الاسلام والحضارة العربية ص ٣ ·

الدولة العثمانية فى العصور الأخيرة أعصاب أوروبا زمنـــا ، أن يقول الخصم فى خصمه ما قد يحط من قدره ، ويصغر من أمره ، ولا يفوتنا أن الجهل كان فاشـــيا فى الغـــرب ، وأن الدين كان مسيطرا على كل عالم وباحث ، وأصبحت آراء المؤرخين تختلف فى الجوهر والعرض فى الحادثة الواحدة ، لأن من مظاهر هذا العصر اشتداد سلطان التعصب القومى .

ويبرز المفكر الأمريكى المعاصر (ولفرد كانتويل سميث)(١) دور الاتراك العثمانيين فى حماية الاسلام والعالم الاسلامى ،فيقول ليس تاريخ الأتراك الاسلامى بالبعيد ، ولكنهم مثـــــل العـــرب المسلمين ، فقد كان الأتراك عظماء فى اسلامهم ، واستغلوا عظمتهم فى دعم الاسلام ، فنشروه فى جهات كثيرة كالهند ، ودافعوا عنـــه ضد المغول والصليبيين ، وهم الذين تغلبوا على الدولة البيزنطية ، ألد أعداء الاسلام ، فقضوا عليها . وفضلا عن ذلك ، فقد نشر الأتراك المستعمرات الاسلامية فى جنوب أوروبا . أما من جهـــة الثقافة الاسلامية فقد منحوها العون الكثير بنشاطهم ومثابرتهم ، كما زودوا الصوفية بعناصر مخلصة متحمسة ، ومنهم من حصل على أعلى الدرجات العلمية الاسلامية ، وقد بنوا المساجد الفخمـــة وعمروها .

ويشير (سميث) (٢) الى نتائج الانتصـــارات العثمانيـــة فيقول : وكان التحدى والانتصارات تصل الى نطاق القيم والأفكار فالهجوم الاسلامى كان ينتظم النظر والعمل ، وكان الاسلام يركز أفكاره على مركز العقيدة المسيحية التى شرعت أوروبا تقيم عليهـــا

---

(١) سميث : الاسلام فى التاريخ الحديث ص ٥٢ (سلسلة كتب سياسية) .

(٢) المصدر السابق ص ٤٢ .

مدنيتها ، وكان التحدى الاسلامى يتميز بالقـــوة حتى أنه تسلل بنجاح الى قرابة نصف العالم المسيحى ، فكان القوة الايجابيـــة الوحيدة التى اكتسبت مرتدين عن المسيحية ، يقـــدر عـــددهم بعشرات الملايين ، وكان القـــــوة الوحيدة التى أعلنت أن المذهب المسيحى ليس زائفا فقط ، بل شنيعا أيضا ٠

الاستشراق فى التاريخ الحديث :

لم يتبع تطـــور الاستشراق من مراحـــله الأولى فى العصر الوسيط الى مرحلة التحول النهائى الى علم قائم على النقد التاريخى طريقا مباشرة مستقيمة ٠ ولم يتشكل كعلم الا عندما تأكد استعداد الأوروبيين للانصراف عن الآراء السابقة ، وعن كل لون من ألوان الانعكاس الذاتى ، وللاعتراف لعالم الشرق بكيانه الخاص الذى تحكمه نظمه الخاصة ، وعندما اجتهدوا فى نقل صورة موضوعية له ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ٠

ولكن الجهود التى بذلك لانصاف الشرق ورسم صـــورة له مستمدة من المصادر تعرضت من حين لآخر لاتجاهـــات اعترضت سبيلها ، أو غطت عليها وأدت الى تشويه صورته ٠ وكان من بين ممثلى « حركة التنوير » من رأوا فى النبى العربى أداة لله ومشرعا حكيما ورسولا للفضيلة وناطقا بكلمة الدين الطبيعى الفطـــرى مبشرا به ٠ وصحب هذا الاتجاه تحمس رومانتيكى لكل ما هـــو شرقى (١) ٠

وليس من الممكن تحديد الفترة التى بدأ فيها مثل هذا الاتجاه الجديد على وجه الدقة ٠ ويمكننا أن نحدده بمنتصف القـــرن

---

(١) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ١٥ ٠

التاسع عشر ، حيث بدأت الصفة العلمية بالمعنى الحديث تظهر في هذا الوقت على الاستشراق بوضوح أكثر من ذي قبل · ولكن النية المتجهة الى فهم الموضوعات فهما موضوعيا ، كانت موجودة قبل ذلك بكثير ، وكانت أوضح ما تكون في مجال الدراسات اللغوية ، ودراسات اللغة العربية خاصة ، فقد كان تعلم وتعليم اللغة العربية يقتصر على التمكن من وقائع مجردة خالصة ، ولم يكن الاختلاف في الأمور الدينية وما يتبعه من خطر تشويه المضمون يظهر ، الا بعد التمكن من اللغة ، وانتهاج سبيلها الى الثقافة العربية الاسلامية الغريبة المدونة (١) ·

حتى اذا بدأت الأطماع الاستعمارية تظهر بوضوح في الدول الأوروبية ، بدأت هذه الدول في اقتطاع بعض أجزاء من الشرق العربي الذي كان خاضعا حينئذ للحكم العثماني ، بدأ الاستشراق يدخل في مرحلة جديدة متميزة ·

وأدت هذه الأطماع الأوروبية الاستعمارية الى حرص دول أوروبا على الوقوف على التاريخ العربي والاسلامي ، والكشف عن الحضارة العربية ، والتراث الاسلامي · فأحسنت كل دولة الى مستشرقيها ، فضمهم ملوكها الى حاشياتهم أمناء أسرار وتراجمة وانتدبوهم للعمل في سلكي الجيش والدبلوماسية الى بلدان الشرق وولوهم كراسي اللغات الشرقية في كبرى الجامعات والمدارس الخاصة والمكتبات العامة والمطابع الوطنية ، وأجزلوا عطاءهم في الحل والترحال ، ومنحوهم ألقاب الشرف وعضوية المجامع العلمية (٢) ·

---

(١) المصدر السابق ص ١٧ ·

(٢) نجيب العقيقي : المستشرقون جـ ٣ ص ١١٤٩ (طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٥) ·

ومضى الاستشراق والغزو الاستعمارى فترة طويلة فى طريق واحد . واذا كان الغربيون قد غزوا بلاد العرب والاسلام تلك الغزوات السياسية والعسكرية والاستعمارية التي نعرفها ، والتي أذن الله أن نتحرر منها ، فان المستشرقين منهم قد غـزوا تاريـخ العرب والاسلام فأخذوا يقلبون وجوه البحث فيه ، وألفوا فيـه كثيرا من الكتب . بل ساعدوا على تحقيـــق كثير من المخطوطات العربية التى نقلوها الى مكتبات بلادهم ، أو أخذوا صورها مـن مكتبات الشرق ، أو استنسخوها على ذمة نشرها محققة . وقامت من أجل ذلك صناعة نشر التراث العربى الاسلامى فى عدد مـن العواصم والمدن الكبرى فى أوروبا (١) .

ولكن رغم أن المستشرقين قد حاولوا أن يكون استشراقهم ودراساتهم على أسس علمية وطيدة ، الا أن بعضا منهم لم يحيدوا عن الروح الصليبية التعصبية القديمة . وكانت فكرة الصليبيين القديمة فى العداء للمسلمين مســتمدة فى الحقيقة من الفـكرة اليونانية ، كما استمدوا منهم أدبهم وفلسفتهم ، وهى أن العالم ينقسم الى يونانيين وبرابرة ، فاعتقدوا هم أيضا أن العالم ينقسم الى سادة أوروبيين وعبيد من العالم الآخر . وكان الظن أن يصحح المستشرقون من الأوروبيين هذا الموقف ببحثهم وعلمهم . ولكـن تبين أنهم من نفس البيئة التى كونت الصليبيين .

وكان من الأسف أن يكون فى طليعـة هــؤلاء المستشرقين مستشرقون مبشرون ، فأخذوا يستخدمون الاسلام فى الطعـن عليه أداة للتبشير ويختارون الاشياء التى تثير الأوروبيين عـلى

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٥ (القـاهرة ١٩٦٠) .

المسلمين . وجاء من بعدهم من المستشرقين غير المبشرين ،فسلكوا مسلكهم واحتذوا حذوهم ولم يسلكوا مسلك البحث النزيه المجرد بل كانوا يضعون الاتهام أولا ثم يبحثون عن الأدلة التى تقوى هذا الاتهام ، فيما عدا القليل منهم (١) .

الاستشراق فى النصف الثانى من القرن العشرين :

بدأت يقظة الشرق العربى فى مطلع القرن العشرين،وحرصت كثير من الدول العربية والاسلامية على انشاء الجامعات والمعاهد، وقد أتت بثمارها فى الأربعينات من القرن العشرين ، حيث ظهر علماء متخصصون من بين العرب والمسلمين ، قاموا بدراسات كثيرة قيمة فى مجالات الدراسات العربية والاسلامية ، وخاصة فى ميدان التاريخ الاسلامى . واستطاع هؤلاء العلماء والمؤرخون العرب أن يسدوا الفراغات التى كانت قائمة ، والتى كان يسدها من قبل المستشرقون .

وصاحب هذه النهضة الفكرية والعلمية فى العالم العربى ، يقظة قومية ووطنية ، فقد بدأت الدول العربية منذ مطلع القرن العشرين تكافح الحكم العثمانى ، ثم بدأت بعد الحرب العالمية الثانية تناضل الاستعمار الأوروبى المختفى وراء ستار الانتداب. وكانت رغبة العرب فى الاستقلال والتحرر دافعة لهم على النهوض بأحوالهم الفكرية والثقافية . فقد كانت الدول الأوروبية تغزو العالم العربى عسكريا واقتصاديا وسياسيا وحضاريا أيضا . ورأى العرب أن النهضة الحضارية هى خير وسيلة للتحرر السياسى والاقتصادى ، حتى يستغنى العرب عما هو أجنبى .

---

(١) أحمد أمين : يوم الاسلام ص ١١٣ (القاهرة ١٩٥٨) .

وكانت كراهية العرب للأطماع الاستعمارية الأوروبية مما دفعهم أحيانا الى ابداء العداء للحضارة الاوروبية ، ولم تكن كراهية العرب أحيانا للأجانب لكونهم أجانب ، ولكن بسبب تجاربهم مع هؤلاء الأجانب ، وبسبب خوفهم منهم . لقد ظن العرب فى مطلع القرن العشرين أن الدول الأوروبية ستساعدهم على التحرر من الحكم العثمانى والفوز بالاستقلال ، ولذلك ثار العرب ضد الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى وانضموا الى الحلفاء . ولكن سرعان ما نسى هؤلاء الحلفاء وعودهم وبدأوا يرثون الدولة العثمانية ويقتسمون الأقطار العربية . وقاسى العرب الكثير من ظلم وفساد الادارة الاستعمارية البريطانية والفرنسية . ورغم ذلك فقد وقف العرب مرة أخرى الى جانب الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن الحلفاء كافأوا العرب بأن ضحوا بالمصالح العربية .

فلا عجب أن يكره العرب الأجانب ، أو يتخوفون منهم ، أو لا يثقون فيهم . وهذه الكراهية غالبا ما تنعكس على الحضارات الأجنبية ، وتجعل العرب ينظرون نظرة شك وريبة الى المستشرقين ويفسرون الاستشراق تفسيرات سياسية استعمارية .

نمت الحركات السياسية والوطنية المختلفة فى العالم العربى خوف العرب من كل شىء أجنبى ، سواء الأقطار أو الناس، وخاصة الخوف من الحضارة والثقافة الاوروبيتين اللتين تمثلان فى نظرهم المستعمر الأوروبى الذى يناضلونه ويناهضونه . ونتيجة لارتباط الحضارة الأوروبية بالحكم الاستعمارى المقيت ، فقد أصبح العرب يبغضون كلمتى (استشراق) و (مستشرقين).

وظهرت آراء كثيرة حول (الاستشراق) ، فبعض الآراء تذهب الى أنه يجب الفصل بين العلم والثقافة والحضارة وبين

الجانب السياسى والأطماع الاستعمارية ولكن ترتفع أصوات أخرى تعارض هذا الرأى ، فقد مضى الاستشراق والاستعمار فى طريق واحد بحيث قد يصبح من العسير الفصل بينهما ، والتمييز بين ما هو طيب أو خبيث . ورأى بعض آخر أنه يمكن تنقية أبحاث المستشرقين وكتبهم من الشوائب والاستفادة مما هو بعيد عن الدوافع الاستعمارية ، بحيث تكون الجهود النقية الخالصة التى بذلها المستشرقون صالحة ليقيم العرب على أساسها أبحاثا جديدة قيمة ، وخاصة أن الحضارة والثقافة ذات طابع عالمى ، وهى تراث بشرى ، مملوك للأسرة الانسانية جمعاء ، وأنه من العسير أن يبدأ المفكرون العرب من أول الطريق ، وأن يتجاهلوا جهود المستشرقين التى استمرت نحو قرنين . وغالى البعض فى تقدير قيمة أبحاث المستشرقين ، فقد بهرتهم الحضارة الأوروبية والامريكية ، ولذا دعوا العرب الى أن ينهلوا من مناهل هذه الحضارة ، فيسيروا فى نفس الطريق الذى سار فيه الأوروبيون والامريكيون حتى وصلوا الى هذه الحضارة الزاهرة .

هذه هى الآراء التى أثيرت فى العالم العربى . ويمكننا أن نقف منها موقفا وسطا . ونرد على من دعوا الى أن يساير العرب الدول الأوروبية والأمريكية فى فكرها وحضارتها . بأن الحضارة الاوروبية التى بهرت أنظارهم فى القرن العشرين انما قامت على أساس الحضارة العربية الزاهرة التى سادت طوال العصور الوسطى ، وقت أن كان ظلام الجهل والتأخر يخيم على القارة الأوروبية . وان هذا الاساس نفسه يصلح لقيام حضارة عربية فى القرن العشرين قد تكون أعظم من الحضارات الأوروبية والأمريكية .

ان الإنغماس فى الحضارة الأوروبية يجعل الامة العربية

(أمة شحاذة) وهذا لا نرضاه ، بل نأباه تماما · ان تركيا خير مثال لذلك ، فانها بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى انغمست فى الحضارتين الاوروبية والامريكية ، فقد كرهت تركيا أن يقال عنها أنها دولة آسيوية ، وأرادت أن تكون قطعة من أوروبا ، وكأنها أرادت أن تغير تاريخها وجغرافيتها · وانحرفت تركيا الى التيار الأوروبى ، وأصبحت تعيش عالة على الحضارة الاوروبية · ونسيت تركيا أيام الدولة العثمانية المجيدة حينما كانت فى أوج قوتها ، تغزو وسط أوروبا ، وتحكم كثيرا من الدول الأوروبية ، وتمدها بالحضارة الاسلامية ·

واننا ندعو العرب الى التمسك بالحضارة العربية ،التى عرف الأجانب قدرها فى الماضى فأقبلوا ينهلون منها واتخذوها أساسا أقاموا عليه صرح الحضارات الأوروبية والأمريكية · فهى حضارات عربية عريقة ، متينة الاسس ، قوية البنيان · ولكننا لا ندعو ، فى نفس الوقت ، الى تجاهل تام للحضارات الأجنبية ، بل ندعو الى اقتباس ما لا يتعارض مع حضارتنا العربية وفكرنا العربى وقيمنا الروحية ومثلنا العليا واستقلالنا القومى · أى ندعو الى (الاقتباس) ، وننهى عن سياسة (الانغماس) ، حتى لا تصبح الأمة العربية (أمة شحاذة) تعيش على تراث وأفكار غيرها من الأمم فحسب · وعلى العرب أن يتبعوا فى اقتباسهم مبدأ الحياد الايجابى بين الحضارات والثقافات المختلفة ، أى نتمسك بمبدأ الحياد الحضارى ·

وأننا لا نستطيع أن نجحد جهود المستشرقين ، ولا يمكن أن ننكر تماما فضلهم ، ولا يجوز لنا أيضا أن نستغنى على وجه الاطلاق عن دراسات المستشرقين فى أبحاثهم ، بل من واجبنا الاطلاع على وجهات النظر الغربية فى موضوعات تاريخنا العربى

والاســـلامى وان القارىء المثقف ، والمطلع الفطن ، أو البـــاحث المتخصص ، يستطيع أن يقوم أبحاث المستشرقين تقويما حقيقيا صادقا ، كما يمكنه أن يميز بين الغث والسمين ، وبين وجـــوه الانصاف والإجحاف • وقد أصبح حكما سليما واقعيا ، وخاصـــة أن يحكم على دراسات المستشرقين حكما سليما واقعيا ، وخاصـــة بعد ظهور كثير من الأبحاث التى قدمها لنا علماء وأساتذة عـــرب متخصصون ، مما أوجد مجالا لعقد دراسات مقارنة بين اتجاهات المستشرقين وآراء المفكرين العرب •

مستقبل الاستشراق :

لقد تغيرت صور الاستشراق فى تاريخنا المعاصر ، عما كانت عليه فى مطلع القرن العشرين ، أو فى القرن التاسع عشر أو فى العصور الوسيطة • نتيجة تغير الأوضاع السياسية فى الشرق العربى ، ونتيجة النهضة القومية ، واليقظة الفكرية التى نشهدها اليوم فى العالم العربى ، ونتيجة تطور العلاقات الســـياسية بين الدول العربية والدول الأوروبية والأمريكية •

أصبح الاستشراق فى السنوات الأخـــيرة يعيش فى دائرة محدودة ضيقة ، بعد السيول الجارفة من أبحات المستشرقين التى شهدناها فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين • وأصبح الاستشراق الآن يعيش فى البيئات الأوروبية ، بعد أن أغـــلق الشرق العربى أبوابه فى وجه المستشرقين •

حينما كانت الدول العربية فى مطلع القرن العشرين تحـــت انتداب الدول الأوروبية كانت الابواب مفتوحة على مصاريعها أمام المستشرقين ، يصولون ويجولون فى حـــرية تامة ، وكانت دول الانتداب تتحكم فى توجيه الثقافة وتخطيط وســـائل التربيـــة

والتعليم • وتمتع المستشرقون بحرية تامة فى التجول بين مكتبات الشرق العربى ، يسطون أحيانا على مخطوطاتها ، أو يصوروها وينسخوها حسب رغبتهم ، وينبشون الآثار القديمة فى الأراضى العربية ، ويسلبون معظمها ليملأوا بها المتاحف الأوروبية • وكان العرب لا يزالون فى مطلع القرن العشرين فى أول طريق الحضارة والثقافة ،مما يجعلهم فى حاجة الى تلك البضاعة الأجنبية المستوردة التى يقدمها لهم المستشرقون • وكان كثير من المستشرقون يظهرون فى ثوب البراءة • ويؤكدون حسن نواياهم ، وأنهم انما يريدون الكشف عن التراث العربى والاسلامى ، ودراسته تبعا للمنهج العلمى الحديث ، خدمة للعرب والمسلمين ، وخدمة للعلم والحضارة فحسب •

وكان العرب اذا أرادوا الاطلاع على التراث العربى لا يجدون أمامهم الا ما نشروه وحققه المستشرقون • حتى أصبح الميدان مقصورا على أبحاث هؤلاء المستشرقين • ثم تغيرت الأوضاع سريعا ، فقد بدأت نهضة فكرية وعلمية فى أرجاء الشرق العربى، وظهر من بين العرب علماء أفذاذ متخصصون فى سائر فروع المعرفة وقاموا بنشر وتحقيق أمهات الكتب العربية القديمة ، كما قدموا لنا أبحاثا قيمة فى مختلف المجالات ، وخاصة فى التاريخ الاسلامى ، قد تكون أكثر عمقا وفهما وقيمة من أبحاث المستشرقين نتيجة اجادة العلماء للغة العربية ، وحياتهم المستمرة فى الأرض العربية والاجواء الاسلامية •

وفى نفس الوقت ، بدأ استقلال الدول العربية سياسيا ، كما بدأ تحررها الفكرى والحضارى أيضا ، ولم يعد المستشرقون يجدون تلك الحرية القديمة التى مارسوها طويلا ، كما أصبح العرب على وعى قومى وفكرى ، فباتوا ينظرون أحيانا نظرة شك أو حذر الى أبحاث المستشرقين • ولذا بدأ انكماش الاستشراق ،

ورأى المستشرقون أن يبحثوا لهم عن مجال نشاط وميدان آخر ، غير الميدان العربى ·

ولذا اتجه المستشرقون الى الدول الافريقية والآسيوية ، غير العربية ، التى نالت استقلالها ، أو هى فى طريقها الى التحرر ، وقد رأى المستشرقون فى هذه الدول النامية التى طرحت رداء التخلف عنها ، مجالا جديدا يصولون فيه ويجولون ، بعد أن بارت تجارتهم فى الأسواق العربية ، فبدأ المستشرقون يوجهون اهتماماتهم الى الدراسات الأفريقية والآسيوية ، وخاصة أن هذه الدول لازالت فى أول طريق الحضارة ، ولا يتوافر لها من بين أبنائها من يقومون بهذه الدراسات ، فهم لا يزالون فى حاجة الى عقول وأقلام تسد الفراغ الفكرى القائم ، وخاصة أن بعض هذه الدول الأفريقية والآسيوية لا تزال ترتبط بروابط سياسية ، تختلف فى صورها ، بالدول الأوروبية التى كانت تستعمرها قديما ·

وانحصر الاستشراق الآن فى الجامعات والمعاهد فى مختلف الدول الأوروبية والامريكية ، فتتبارى هذه الجامعات الأجنبية فى انشاء المعاهد التى تختص بالدراسات العربية والاسلامية ، وتقوم بتدريس اللغة العربية الى جانب لغات الشرق الأخرى ، كما تنشىء كراسى الاستاذية فى الجامعات ، وتقدم بعض المنح العلمية لأبناء الشرق · وقد اتخذ الاستشراق الآن ، صفة أكاديمية ، واصطبغ بصفة علمية ، وسار فى طريق علمى ، بعد انفصاله عن الطريق السياسى الاستعمارى · وقد يلتقيان أحيانا ويمضيان فى طريق واحد اذا دعت الحاجة أو حتمت الضرورات السياسية ·

وهذه الدراسات التى يقوم بها المستشرقون الآن فى جامعاتهم الأوروبية والامريكية يقدمونها غالبا لمواطنيهم ، ولم يعد العرب

والشرقيون يهتمون بها كثيرا ، فقد أغناهم العلمـــاء والمفكرون العرب بأبحاثهم القيمة ، التى تبرز غالبا أبحـــاث المستشرقين ٠ وأصبحت الجامعات العربية تمنح (الدكتوراه) ، ولم تعد الدول العربية فى حاجة لارسال أبنائها لنيل هذه الدرجة العلمية من الخارج ٠ ونلاحظ أن الكتب الأجنبية التى تتناول دراســـــات عربية واسلامية ، والتى وصلتنا أخيرا ، لا تتصف غالبا بالعمق والدسامة ، بل هى غالبا كتب سطحية خفيفة ، كتبها المستشرقون لأبناء وطنهم لأنها لا تفيد العرب ولا تسمن ولا تغنى من جوع ٠

ولذا فاننـــا نقول ان مستقبل الاستشراق محـدود ، وأن مجالاته تنكمش ، وقد أصبحت كفة الباحثين العرب هى الراجحة الآن ٠ وأصبح الغرب فى غير حاجة الى (فكر مستورد) ، وبات المستشرقون يجترون جهودهم السالفة وانحصرت ابحاثهم الجديدة فى دوائر محددة ٠

الفصل الثالث

دوافع الاستشراق

عوامل اختلاف الدوافع :

ان الاستشراق حقيقة واقعة ، وقد شمل الاستشراق كثيرا من جوانب حضارتنا وفكرنا وثقافتنا العربية ، وتزخر مكتباتنا العربية والاسلامية بأبحاث عديدة للمستشرقين ، فى سائر فروع المعروفة ، وبلغات أجنبية عديدة ، ومعظمها مترجم الى اللغة العربية · ولا يزال كثير من الباحثين يرجعون الى أبحاث المستشرقين فى دراساتهم وانتاجهم العلمى · ولا يزال الرأى فى الاستشراق موضع بحث وجدل ونقاش · ولم يصدر المفكرون العرب حكما نهائيا على نوايا المستشرقين ، ولم يقيموا جهودهم وأبحاثهم تقييما محددا ·

واذا سلطنا الأضواء على الدوافع التى حدت بالمستشرقين للقيام بأبحاثهم ودراساتهم ، والظروف السياسية التى أحاطت

بهؤلاء المستشرقين ، والدول التى ينتسب اليهـا المستشرقون ، والعلاقات القائمة بين الدول العربية والدول الأوروبية ، وأحوال العرب السياسية والحضارية والفكرية ، لأمكننا أن نفهم طبيعة الاستشراق ، وإتجاهاته ، ومراميه ، ثم نصدر حكما حقيقيا منصفا صادقا . نقيم به الاستشراق وجهود المستشرقين ·

والاستشراق هو نتيجة ، ولكن الدوافع تختلف كثيرا ، تبعا لاختلاف الأزمنة والعصور التاريخيـة ، ولاختـلاف العـلاقات السياسية والدولية ، ولاختلاف البيئات الجغرافيـة ، وتنـوع المستويات الحضارية · الى جانب الفروق الفردية ، فليس كل المستشرقين صنفا واحدا ، فهم يختلفون فى عقلياتهم ونفسياتهم وصفاتهم ، فكان هناك من المستشرقين من أبدى اعجابا واقبـالا على حياة الشرق ، وتحمس للحضارة العربية تحمسـا كبيرا ، وانعكست هذه الميول والاتجاهات فى كتاباته وأبحاثه · ومـن المستشرقين من اتصف بالتعصب الأعمى ، ضد الاسلام أو العروبة أو الشرق ، فكانت كتاباته كلها سهاما مسمومة · ومنهم أيضا من أبدى اعجابه بالاسلام حتى أنه اعتنقه وأخلص له ، وانعكس ذلك على أبحاثه ، فأقبل يخدم هذا الدين وحضارته ، بقلمه وفكره · ومن المستشرقين من تأثر بسياسة دولته التى ينتمى اليهـا ، فأصبحت أبحاثه هى صورة لاتجاهات هـذه الدولة وأهدافها السياسية أو الاستعمارية · ومن المستشرقين من هم ضعـاف النفوس ، فأصبحت أقلامهم مأجورة لساسة بلادهم ، أو للصهيونية العالمية · ولكن من المستشرقين أيضا ، من اتصف بالتعمق العلمى ، والتفهم الحقيقى ، والانصاف الواقعى ، ومنهم من كرس حياته ووقته وجهـده للاستشراق ، يدرس العـلم للعلم ، ويبحث عـن الحقيقة أينما كانت ·

ويمكننـا أن نركز الدوافع التى دفعت بالمستشرقين الى

الاستشراق ، فى ثلاثة دوافع رئيسية ، يتفرع منها دوافع ثانوية ، وهذه الدوافع الرئيسية : دينية ، واستعمارية ، وعلمية.

ظهرت هذه الدوافع الدينية واضحة فى العصور الوسطى ، وبداية التاريخ الحديث . وقد تحدثنا فى الفصل السابق ، عند دراستنا لمراحل الاستشراق ، عن مرحلة الاستشراق فى العصور الوسطى ، التى اتصفت بالتعصب الدينى .

يرى (خودا بخش) (١) أن هذا التعصب الديني كان ناتجا عن سيطرة الكنيسة على أهالى العصور الوسطى ، وقد أدى انتشار الاسلام وقوته الى شعور أوروبا بالخطر ، وظن البعض أن الاسلام قد أصبح خطرا على المسيحية . وكان هذا الشعور بالخطر ، هو بداية انطلاق الكنيسة الكاثوليكية المعادى للاسلام وما تبعه من استشراق .

نهضت الكنيسة لتواجه تهديد الاسلام للمسيحية ، فلم تعد تتبع سياسة اللين والتسامح . واذا أدركنا مدى سيطرة الكنيسة ونفوذها على مسيحيى العصور الوسطى ، وتأثيرها على أدب هذه العصور فاننا ندرك ما نال الاسلام طوال العصور الوسطى من هجوم وقدح ، وذلك نتيجة منطقية للظروف السائدة فى تلك العصور .

وتحالف التعصب الدينى مع الجهل السائد فى العصور الوسطى ، على تشويه صور الاستشراق القائم فى هذه العصور. فقد أدى هذا الجهل الى أن الاسلام ظل غير معروف لمعظم أبناء المجتمع المسيحى ، كما ظل محمد فى الأدب الأوروبى شخصية غامضة . ويمكننا أن ننسب هذا الجهل بالاسلام وبمحمد عليه

---

(١) الحضارة الاسلاميه (من ترجمتنا) ص ٣٧ ـ ٣٨ .

الصلاة والسلام ، الى قلة الفرص المتاحة للمسيحيين لدراسة حياة الرسول أو عقيدته ، اذ أن علاقات البيزنطيين فى ذلك الحين بالمسلمين كانت محدودة ·

ولكن منذ النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى بدأت ترجمة معظم كتب العرب ، فى الفلسفة والطب والفلك والرياضيات ، الى اللغة اللاتينية · وهذا يدل على أن كثيرا من المسيحيين أصبحوا يجيدون اللغة العربية · وفى مقدمة هؤلاء نجد (رايموند Raymond) رئيس أساقفة توليدو ، وحاكم مدينة كاستيل (١١٣٠ – ١١٥٠) الذى شكل هيئة من المترجمين تولى رئاستها وسماها (Dominican Gondeslavi)

والى جانب الدول البيزنطية ، فقد اتصلت أوروبا بالمسلمين عن طريق أسبانيا وخاصة مدينة توليدو ، وعن طريق صقلية ومملكة نابلى · ورغم أنه كان من السهل أن يعلم المسيحيون الكثير عن الاسلام ، الا أنهم ظلوا طوال العصور الوسطى يجهلون كل شىء عنه ، بل جهلوا اسم (محمد) فنراه فى أدب العصور الوسطى يكتب (Mophomet) أو (Baphomet) (Befum) بل ظل المسيحيون قرونا يعتقدون أن محمدا هو اله المسلمين !!! ومن سوء الحظ أيضا ، أن أقطار غرب أوربا كانت معلوماتها الأولية عن الاسلام ، عن طريق مصادر غير صادقة ، وهى المصادر البيزنطية ، ونحن نعلم مدى العداء التقليدى القديم بين العرب المسلمين والرومان البيزنطيين · وكان البيزنطيون يعتبرون الاسلام خطرا على عقيدتهم ولما كانت الدولة البيزنطية تشعر بعجزها عن مواجهة الدول الاسلامية فقد لجأت الى السلاح الدينى ، وهو تجريح العقيدة الاسلامية ·

ظهرت فى القرن الحادى عشر الميلادى كتب تناولت الاسلام

قد حفلت بالاتهامات والشتائم ، وكلها تتصف بالتهوّر والافتراءات الغريبة التى تدل على تفكير سقيم ، ولم تبذل محاولة جدية لفهم الاسلام أو دراسة حياة محمد • ومن هؤلاء المؤلفين المتعصبين (رايموند) أسقف (توليدو) الذى ترجم بعض المؤلفات العربية • ومنهم بيتر المعروف باسم : (Peter the Venerable)

وقد حمل (بيتر) هذا لواء حملة نشيطة ضد الاسلام ،ولام المسيحيين على مهادنة الاسلام ، ووضع خطة لمحاربته • ورأى (بيتر) أن تكون نقطة بداية هذه الحرب هى القرآن ، ولهذا السبب ترجم القرآن الى اللاتينية • وتاريخ أول ترجمة يدعو الى الحديث عنها ، اذ أنه لا يجوز أن نصفها بأنها (ترجمة) على أى حال من الأحوال ، فان (روبرت) الذى تولى أمر الترجمة لم يقم بترجمة القرآن حرفيا ، بل قام بترجمة بعض المعانى العربية بقدر ما استطاع •

و (روبرت) هذا رجل انجليزى ، قام برحلات الى فرنسا وايطاليا والبلقان واليونان ، ورحل الى آسيا حيث تعلم اللغة العربية • وفى يوليو ١١٣٦ م استقر فى برشلونة ، ثم أصبح أرشيدوق (بامبلونا) • ثم قام (بيتر) بتكليف (روبرت) بترجمة عدة كتب عربية الى اللغة اللاتينية ، وهى تضم دراسة لحياة محمد وتاريخ الخلفاء الى عهد يزيد الأول ومصرع الحسين، كما ترجم القرآن أيضا وانتهى من ترجمته سنة ١١٤٣ •

فتحت مؤلفات (بيتر) عهدا جديدا للصراع الدينى الموجه ضد الاسلام ، فقد كانت مؤلفاته هى المنبع الذى استقى منه كتاب العصور الوسطى ، ولذا ظهرت حملات كثيرة ضد الاسلام فى كتب ألفت بمعظم اللغات الأوروبية ، بل ان بعض الكتاب جعلوا حملاتهم المعادية لمحمد وعقيدته على شكل قصائد شعرية ، فبينما كتب

(Walter of Sens) حيـــاة محمـــد باللغـــة اللاتينية ، نظمهـــا (Alexander du Pont) بالشعر الفرنسي وانتشرت الترجمة التى قام بها روبرت للقرآن انتشارا واسعا طوال العصور الوسطى . كما اتخذت الحملات الموجهة ضد الاسلام أحيانا صـــورة جدل ونقاش بين رجال الدين المسيحى والاسلام ، وقد يكون هذا الجدال حقيقيا أو خياليا (١) .

ومن أشهر المستشرقين المتعصبين فى العصور الوسطى ، الذين أساءوا الى الاســـلام والرســـول (جيبرت أوف نوجنت (Guibert of Nogent) الذى كتب عن حياة الرســـول ، فكانت كل كتاباته مجموعة من الأساطير الخرافية ، التى ابتدعها أو نقلها عن غيره من المغرضين . ومن هؤلاء المستشرقين المتعصبين أيضـــا (هيلد برت) أسقف (ليمونز) ورئيس أساقف ثور فى ســـنة ١١٣٣ م ، فقد كتب تاريخا للرسول هو مجموعة من الخرافات والافتراءات . وفى النصف الأول من القرن الثانى عشر كتب (والتر) شعرا عن ظهور الاسلام كما رواه له أحد المسلمين الذين اعتنقوا الاسلام حديثا . وأبرز الجوانب التى نعرض لها هـؤلاء الثلاثة فى حياة الرسول قصته مع الراهب بحيرى الذى التقى به خلال رحلة الرسول الى الشام فى قافلة عمه أبى طالب . وذكر هؤلاء المستشرقون الثلاثة قصصا خيالية بعيدة تماما عن الواقع التاريخى ، فنذكر على سبيل المثال ما ذكره (والتر) من أن الرسول قاد جماعة من أتباعه لغزو أراضى الدولة الفارسية .

ومن هؤلاء المستشرقين المتعصبين الذين شهدتهم العصـــور الوسطى أيضا ، (أندريا داندولو) الذى ردد ما ذكره الثـلاثة السابق الاشارة اليهم ، وأضاف عليها كثيرا من خياله المغرض .

---

(١) خودابخش : الحضارة الاسلامية (من ترجمتنا) ص ٤٦ ـ ٤٩ .

ثم يأتى دور (توسكان توماس) الذى كتب فى سـنة ١٢٧٨ مجموعة من الأساطير الخرافية وزعم أنه استمدها من كتاب قديم نادر عثر عليه فى (بولونا) · ثم يأتى دور أمير (بوفيه) الذى ألف كتابا عن الرسول أيضا أساء اليه فيه اساءات بالغة (١) ·

هذه الكتب التى وضعها مستشرقون متعصبون مغرضـون هى فى الحقيقة صورة لأحقادهم على الاسلام والمسلمين ، فقد رأوا بكتاباتهم أن ينفسوا عن هذه الأحقـاد بعـد أن عجزت الدول المسيحية عن وقف تيارات الفتوحات الاسلامية وانتشار الحضارة العربية فى القارة الأوروبية نفسها · وهذه الكتب أيضا لا تتبع منهجا علميا ، وليست قائمة على دراسة عميقة ، بل هى مجموعة خرافات وافتراءات واساءات، تأخذ الصورة القصصية والأسطورية التى ربما تثير حب اسـتطلاع الاوروبى ، وتجعله يقبـل على قراءتها ·

وانصافا للحق ، نقول انه قامت فى العصور الوسطى حركة مضادة لهذه الحركة المتعصبة المغرضة · فقد ظهر من بين الأوروبيين نفر منصفون أبدوا سـخطهم على حملة الافتراءات والاسـاءات ، وقدموا لمواطنيهم كتبا تنصف الاسلام والرسول وتحاول أن تزيل الشبهات التى أثارها الآخرون ، ولكن هذه الكتب المنصفة أيضا لم تتبع منهجا علميا ثابتا ، ولم تخل أيضا من بعض الأساطير ·

ومن هؤلاء المستشرقين (وليم William of Lripoli) الذى امتدح الاسلام وأثنى عليه ، واجتهـد فى فهم حقيقة العقيـدة الاسلامية وحياة الرسول . وحينما نقرأ كتابه نشعر أننا نتنفس هواء نقيا ، فنظرته بعيدة عن التعصب ، وحكمه ليس نتيجة فكرة

---

(١) المصدر السابق ·

خادعة · وقد أشاد (وليام) بصحابة الرسول ، وذكر كثيرا من أسمائهم . كما دون صورة واضحة نقية لعهد ظهور الاسلام · كما تحدث (وليام) عن نزول الوحي والقرآن ، وقد اهتم بالآيات القرآنية التى تتشابه فى تعليماتها مع تعاليم المسيحية ، ثم اهتم بالسور التى تبين نظرة المسلمين الى الله عز وجل · فذكر أن المسلمين يعبدون الله باعتباره خالق العالم ، كما يجلون المسيح باعتباره نبيا كما يحترمون العذراء مريم · وذكر (وليام) انه أمضى بعض الوقت بين المسلمين ، وأنه بعد أن عاشرهم يمكنه أن يعترف أن الاسلام قد أثر على المؤمنين به فهذب أخلاقهم ، وذكر أن الجانب المشرق للاسلام لا يتضح الا لمن عاش بين المسلمين ، وعرف الأمور على حقيقتها ، وحينئذ يكف عن تحريض المسيحيين ضد المسلمين ·

ومن هؤلاء المستشرقين الذين بعدوا عن التعصب ، (تيتمار) الذى امتدح الرسول كثيرا لأنه حث أصحابه على الرحمة وانكار الذات ، والعطف على الفقراء والضعفاء · ومنهم أيضا (أوتو (Otto of Freising الذى برأ الاسلام مما اتهمه به الكتاب المسيحيون من مظاهر الوثنية ، وأكد فى عزم أن الاسلام دين التوحيد وأنه يعترف بالمسيحية وسائر الرسل ·

ومن أبرز هؤلاء الكتاب المنصفين الواعظ (نيكلدوس أوف مونت كريستو) الذى عاش فى أواخر القرن ١٣ وفى مطلع القرن ١٤ ، فقد كان أكثر عدلا وانصافا من معاصريه ، فقد أمضى سبع سنوات بين المسلمين ودرس فيها القرآن عن قرب ، وتحدث عما حث الاسلام عليه من فضائل ، بل ذهب بعيدا حتى أنه طلب من أخوانه فى المسيحية أن يتخذوا من الاسلام وصفات المسلمين مثلا عليا لهم · وأبدى اعجابه بدراسة القرآن فى مدارس بغداد . وذكر أنه عاش ثلاثة أشهر بين سائقى الابل فى الصحراء، الذين لم ينسوا

حتى فى أوقات الشدة والضيق أن يؤدوا فرائض الصلاة ، ولاحظ أن كثيرا من المسلمين يقبلون على أداء الصلاة فى شغف وتلهف . وأبدى (نيكلدوس) اعجابه بالوضوء الذى يسبق الصلاة . كما أبدى اعجابه بحب المسلمين للاحسان والتصدق ، وقد لاحـظ انتشار المؤسسات الخيرية ، وأثنى على نظام الزكاة الذى فرض من أجل مساعدة الفقراء ، وأبدى اعجابه أيضا بنظام تخصيص خمس الغنائم من أجل أغراض الاحسان ، كما أن الأغنياء كانوا يوقفون أملاكهم من أجل أغراض الخير ، كما كانوا يتصدقون بالفدية التى كان يدفعهـا الأسرى للمسلمين مقابل اطلاق سراحهم ، وأبدى اعجابه بشفقة المسلمين على الطيور والحيوانات ، وأظهر مـدى اجلال المسلمين لربهم ، حتى انهم يبدأون جميع كتاباتهم بعبـارة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، كما أنهم يخلعون أحذيتهم قبـل دخولهم الى المسجد . وأشاد بكرم المسلمين وحسن ضيافتهم ،وذكر أن كل من أكل ملحهم فقد أصبح فى حمايتهم .

ورغم هذا الصدق ، وهـذا التفكير السليم الذى أبداه (نيكلدوس) الا أنه كان أحيانا يحذو حذو معاصريه أحيانا ،ولكن الأخطاء التى وقع فيها لا تنقص كثيرا من قيمة كتاباته فنظـرته العامة للاسلام منصفة ومن المسائل التى انتقدها (نيكلدوس) ما جاء فى القرآن عن انشقاق القمر ، كما انتقد نظـام المواريث الاسلامى ، ووصف القرآن لنعيم الجنة (١) .

ثم دخل الاستشراق المصطبغ بصبغة دينية فى دور جديد ، أكثر تنظيما واتساعا ، وقام الفاتيكان بحمل لواء هذه الخطـوة الجديدة ، واشترك فيها البابوات والأساقفة والرهبان الذين استفادوا من نفوذهم لدى الملوك والأمراء . وكان رجال الدين ،

---

(١) خودابخش : الحضارة الاسلامية ص ٥٩ _ ٦٢ .

ومرجعهم الفاتيكان يومئذ ، يؤلفون الطبقة العاملة فى أوروبا ، ولا سبيل لهم الى ارساء نهضتها الا على أساس من التراث الانسانى الذى تمثلته الثقافة العربية ، فتعلموا العربية ، ثم اليونانية ، ثم اللغات الشرقية للنفوذ منها اليه ، ولتخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين واليهود ويردون عليهم ببراهين من كتبهم أنفسهم . فى البلاد التى أجلاهم الاسلام عنها ، ثم لتدريب أدلاء يتخاطبون بالعربية للقيام على خدمة الحجاج من أصقاع العالم الى الأراضى المقدسة والعناية بعابرى السبيل . ثم لتحقيق الكتاب المقدس . وقرر الفاتيكان تعليم اللغة العربيـــة ، الى جانب اليونانيـــة والدراسات الشرقية ، فى مدارس أســـبانيا ، ومدارس الأديرة والكاتدرائيات . وانشاء كراس للغة العربية فى جامعات روما وباريس وأكسفورد وبولونيا وغيرها . وتم تكليف هؤلاء الأساتذة بترجمة الكتب العربية الى اللاتينية ترجمـــة علميـــة دقيقة . واستعانو فى الترجمة بمن يجيد العربية من النصارى والمسلمين واليهود ، فكانوا يترجمون ترجمة حرفية ، ثم يقوم رجال الدين بالصياغة فى أسلوب لاتينى متين . ولما كان الشرق أســـبق فى الحضارة من أوروبا بنحو ثلاثة قرون ، فقد تفوقت اللغة العربية على سائر اللغات ، لأنها لغة العلم . ولغة الفلاسفة كابن رشـــد وابن سينا وغيرهما (١) .

ومن أشهر المستشرقين من رجال الدين فى العصور الوسطى (جربر دى أورالياك ٩٣٨ – ١٠٠٣) ، وكان فى أول أمره من الرهبان البندكتيين ، ثم قصد الأندلس وأخذ عن أساتذتها ، حتى أصبح من أبرز علماء عصره فى الدراسات العربية والرياضـيات والفلك ، وحينما رحل الى روما أصـــبح أول بابا فرنسى باسم

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ١ ص ١١٤ – ١١٦ .

(سلفستر الثانى ٩٩٩ ـ ١٠٠٣) ، وقد امر بانشاء مدرستين عربيتين فى روما . (رايمس) ، وهو الذى أدخل الاعداد العربية فى أوروبا . ومن هؤلاء المستشرقين أيضا (قسطنطين الأفريقى المتوفى عام ١٠٨٧) . وقد ولد فى قرطاجنة ، ورحل الى فراسان وبغداد والشام ومصر والقيروان والهند ، وترهب فى دير مونتى كاسينو وترجم كتب الطب والفلك من العربية الى اللاتينية .ومنهم أيضا الراهب الأيرلندى (ديكويل) الذى زار مصر ووصف أهراماتها . ومنهم أيضا الراهب البندكتى (أدلرد أوف باث ١٩٧٠ ـ ١١٣٥) الذى درس فى تور والأندلس وصقلية وآثر مذهب العرب فى العلم على مذهب الفرنجة ، وترجم كثيرا من الكتب العربية . ومن هؤلاء المستشرقين البارزين (بطرس المكرم ١٠٩٤ ـ ١١٥٦) وهو راهب فرنسى أصبح رئيسا لدير كلونى الذى أصبح مركزا خطيرا لنشر الثقافة العربية . وهناك أسماء كثيرة ساهمت فى حركة الاستشراق ، ونقل التراث العربى الى القارة الأوروبية (١) .

وكانت الحروب الصليبية هى المنبع الدفين الذى انبثق منه سيل الاستشراق ، فقد كانت هذه الحروب فرصة لاتصال الغرب بالشرق ، وحدث الغرب نفسه بأن له مع الشرق تاريخا طويلا، فكان لابد للغرب المعتدى من معرفة ما يمكنه معرفته من أحوال هذا الشرق ومداخل السيطرة عليه والاستبداد به ، ومن أهم الوسائل الموصلة الى ذلك دراسة ما يتعلق بالشرق لاستغلاله من جهة ، ولتحوير ما يلزم للغرب تحويره من جهة أخرى .

كما أن هذه الحروب قد أطلعت الغربيين ـ عن طريق

---

(١) المصدر السابق .

الاتصال بالشرق من جهة ، والمقارنة بين الاسلام ودينهم من جهة أخرى – على مواطن فى دينهم ، تحتاج الى مراجعة أو تعديل ، وهذا ما سماه بعضهم بحركة (الاصلاح الدينى) وهذه الحركة استدعت مراجعة أصول الدين عندهم ، فاستدعت المراجعة نوعا من الدراسات العبرانية ، ثم انتقلوا الى الدراسات العربية ، ثم كانت هناك الرغبة القوية فى التبشير بالمسيحية فى الشرق ، فاستلزم هذا دراسة اللغه العربية على أيدى المستشرقين ، ولتكون تلك الدراسة معوانا على النجاح فى هذا التبشير ، ومن هنا تلاقت وجهة الاستعمار مع وجهة التبشير مع وجهة الاستشراق ٠ ولذلك نجد بداية الاستشراق تنشأ على أيدى الرهبان من المبشرين الغربيين ، كما نجد التعاون الوثيق بين هؤلاء وبين رجال الاستعمار (١) ٠

أثرت الحروب الصليبية فى القارة الأوروبية ، اذ أدت الى اضعاف النظام الاقطاعى ، وهو النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى أعطى المجتمع الأوروبى الغربى طابعه فى هذا العصر ٠ ويبدو أثر الحروب الصليبية واضحا كذلك فى الميدان الاقتصادى ، اذ ساعدت تلك الحروب على احداث تطور ملموس فى النظم المالية فى غرب أوروبا ، هذا الى ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، مما أدى الى نتائج خطيرة فى غرب أوروبا ، منها ازدياد نفوذ المدن وقوتها ، واتساع نطاق النشاط المصرفى ، وتحسين طرق التجارة ، ونشاط الطرق البحرية ٠ كما أن الحروب الصليبية أتاحت فرصا كثيرة للاتصال الحضارى بين الغرب الأوروبى والشرق العربى ، مما أدى الى انتقال كثير من مظاهر الحضارة العربية الاسلامية الى غرب أوروبا عن طريق الصليبيين (٢) ٠

---

(١) دكتور أحمد الشرباصى : التصوف عند المستشرقين ص ٨٠٧ ٠

(٢) دكتور سعيد عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١٠٦ ٠

ثم دخلت أوروبا فى عصور النهضة ،وحدثت تطورات محلية كثيرة ، أدت الى تطوير لحركة الاستشراق . فقد تميز الاستشراق فى العصور الوسطى غالبا بطابع دينى ، وكان معظم المستشرقين من رجال الدين المسيحى ، والذين كان لهم النفـوذ الأغلب فى أوروبا ، وكانت السياسة والدين فى القارة الأوروبية يمضـيان فى طريق واحد . ثم بدأ الانفصال بينها وبين الدين .

أدب الحروب الصليبية الى تطور واضح فى حركة الاستشراق بدوافع دينية . وقد أقبل بعض الصليبيين ، بعد أن لمسوا أخلاق المسلمين وتسامحهم ، على اعتناق الاسلام . فكتب المستشرق توماس أرنولد(١) تحت عنوان «حالات التحول الى الاسلام بين الصليبيين»: الى ذلك الحين كانت الكنائس المسيحية التى وصفت بأنها قد دخلت فى نطاق تأثير الحكم الاسلامى عبارة عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والطوائف الخارجة عن الدين التى تفرعت عنها . ولكن بانتهاء القرن الحادى عشر الميلادى انضم الى أهالى الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الأمم اللاتينية ، واستقروا فى مملكة بيت المقدس وسائر الولايات التى أسسها الصليبيون ، وظلت تعيش مهددة قرابة قرنين من الزمان . وفى غضون تلك الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات الى الاسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء .

أما سائر الصليبيين الذين لم يعتنقوا الاسلام ، فقد تأثروا بالأخلاق والطباع الاسلامية ، ونهلوا منها الكثير . فقد كان المسلمون مع الصليبيين أيام المهـادنات والسلام على غاية التسـامح وحسن المعاملة ، مع أن الصليبيين باقرار مؤرخيهم كانوا مثال الخشونة فى الطباع . وأفضت معاملة المسلمين لأعدائهم ، الى أن قلد الصليبيون

---

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٠٨ .

المسلمين فى لباسهم وعاداتهم ، ومنهم من تعلـم اللغة العربيـة وأجادها ، وجرى على منوال المسلمين فى كثير من شئون حياتهم ٠

تحدث المستشرق (توماس أرنولد) (١) عن أثر الاسـلام والمسلمين فى أفكار الصليبيين وأخلاقهم ، فقال : ان زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين ، وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم تقديرا أخذ ينمو على مر الزمن ، ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين فى الأراضى المقدسة للشرقيين فى عاداتهم واساليب حياتهم مما أثر فى الأفكار الدينية ، ومن أظهر ألوان هذا التأثير ، ذلك المسلك السمح الذى سـلكه كثير من الفرسـان المسيحيين نحو العقيـدة الاسلامية ٠ بل ان علمـاء اللاهـوت المسيحى حين أدى اختلاطهم بالمسلمين اختلاطا شخصيا الى تكوين رأى أكثر انصافا عن ديانة المسلمين ، وزعزع الارتباط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس . وأثار ألوان الزندقة ، فليس بغريب أن ينجذب الكثيرون الى حظيرة الاسلام ، وكان عدد المرتدين عن المسيحية فى القرن الثانى عشر الميلادى كثيرا كثرة نلاحظها فى سجلات الصليبيين القانونية التى يطلق عليها (مجالس قضاء بيت المقدس) ٠

وكان لهـذا أثره فى حركة الاستشراق ، وبدأت الدوافع الدينية للاستشراق تنكمش قليلا ٠

فقد أدى النزاع فى الغرب المسيحى بين السلطتين الدينية والزمنية ، أى بين الكنيسة والدولة ، الى الفصل بينهما ، والى اقامة سلطان الدولة على انكار سلطان الكنيسة ٠ وكان لهذا التنازع على السلطان أثره فى التفكير الغربى كله ٠ وفى مقدمة النتائج التى ترتبت على هذا الأثر ما كان من تفريق بين الشعور الانسانى والعقل

---

(١) الدعوه الى الاسلام ص ١١٠ ٠

الانسانى ، وبين منطق العقل المجرد ومقررات العلم الواقعى المستندة الى الملاحظة المادية • وكان لانتصار التفكير المادى أثره البالغ فى قيام النظام الاقتصادى أساسا رئيسيا للحضارة الغربية • فقد نشأ من ذلك أن قامت فى الغرب مذاهب تريد أن تجعل كل ما فى هذا العالم خاضعا لحياة هذا العالم الاقتصادى كما أراد غير واحد أن يضع تاريخ الانسانية فى أديانها وفنها وفلسفتها وتفكيرها وعلمها بوحى ما كان من مد أو جزر اقتصادى فى مسأله امهما المختلفة • أما المسألة الروحية فهى فى نظر الحضارة الغربية مسألة فردية صرفة • هذا بينما تقوم الحضارة الاسلامية على أساس روحى ، والنظام الروحى فيها هو أساس النظام التهذيبى والخلقى (١) •

وفى العصر الحديث ، ظهرت دوافع أخرى للاستشراق ، منها الدوافع الاستعمارية ، والدوافع العلمية البحتة المخلصة • وقد انكمشت الدوافع الدينية وتضاءلت ، ولكنها لم تنعدم • وجوهر كتاباتهم أن الاسلام هو المسئول عما أصاب العالم الاسلامى فى العصور الحديثة من تأخر حضارى ، بينما كانت المسيحية هى سبب ما شهدته أوروبا من نهضة حضارية • وهؤلاء المستشرقين المبشرين ، يدعون المسلمين الى أن يفصلوا حياتهم الدينية عن حياتهم الدنيوية •

ومن هؤلاء المستشرقين المبشرين المحدثين ، نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الاسلامية ، أو يستخدمون غيرهم فى سبيل ذلك ، ثم يرمون كلهم مما يكتبون الى أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية ، أو بين العلوم الاسلامية والعلوم الغربية ، ليخرجوا دائما بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية والاسلامية ، وبالتالى الى ابراز نواحى النشاط الثقافى للغرب .

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٥٠٠ (طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٩) •

وتفضيلها على أمثالها فى تاريخ العرب والاسلام ، وما غايتهم من ذلك الا خلق تخاذل روحى ، وشعور بالنقص فى نفوس الشرقيين ، وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدينة المادية الغربية (١) ·

ويولع المستشرقون بتتبع اللهجات العامية فى البلاد العربية الاسلامية ودراستها والتنويه بها ، وهم يقصدون من ذلك أن يمكنوا لها حتى تطغى على اللغة الفصحى ، لغة القرآن الكريم ، ولغة القومية العربية الموحدة · وتراهم يولعون بتناول مواطن خاصة ينالون فيها من الاسلام ويعرضون به كما يولعون بتتبع الأساطير والقصص التى لا تثبت صحتها ، ليبنوا منها أحكاما كلها أوهام وخيالات واسراف فى اصدار النتائج والأحكام ·

ويحاول هؤلاء المستشرقين دائما تصوير الاسلام فى صورة الدين الجامد الذى لا يصلح للتطور أو التجديد ، ومن كيدهم فى هذا الباب أنهم يحكمون دائما على الاسلام من واقع المسلمين ، فهم لا يصورون الاسلام من منابعه ومصادره ، بل يصورونه من واقع المسلمين السيىء · وهم بطبيعة الحال يختارون البيئات الاسلامية التى نالها الضعف أو الهذال لهذا السبب أو ذاك ، ويجعلون هذه البيئات الضعيفة نموذجا للاسلام (٢) ·

أصبحت كتابة هؤلاء المستشرقين تدور حول أن أوروبا هى سيدة العالم ، وعلى أن رجلها الأبيض هو المسئول عن الأسود والأصفر ، وأن الله خلق العالم قسمين : قسما أوروبيا ساميا ،

---

(١) انظر كتاب (التبشير والاستعمار) تجد كثيرا من التفصيلات عن هؤلاء المستشرقين المبشرين ·

(٢) دكتور أحمد الشرباصى : التصوف عند المستشرقين ص ١٠ ·

وقسم غير أوروبى منحطا ، ومن أجل ذلك يؤرخون أوروبا بأنها المركز وما حولها نقط على المحيط . واذا جازوا للتاريخ الاسلامى اقتضبوه أو حرفوه (١) •

وخير ما يصور محاولة بعض المستشرقين من أن يلصقوا بالاسلام كل تأخر حضارى أصاب العالم الاسلامى ، كتاب (الاسلام فى التاريخ الحديث) للمستشرق الأمريكى المعاصر (ولفرد كانتوبل سميث) الذى كان مديرا لمعهد الدراسات الاسلامية بجامعة ماكجيل بمدينة مونتريال بكندا (٢) • فهو يقول فى كتابه : للاسلام فى العصر الحديث مشكلة وأزمة ، فالمسلمون يحسون أن خطأ ما وقع فى تاريخهم . فانحرف به عن طريقه السوى . وأن ثمة مفارقة بين الدين الذى أنزله الله وبين التطور التاريخى للعالم الذى يسيطر عليه ويصرف أموره ، وانهم يفكرون فى كيفية تقويم ما اعوج من تاريخهم حتى يعاود سيره من جديد فى كامل قوته (٣) •

ثم يقول (سميث) : واذن فالمأزق الاسلامى ازاء العصرية يحسه المثقفون بعمق ، فقد مضى أكثر من قرن من الزمان منذ بدت الحاجة الى الدفاع عن العقيدة ضد الضغط الخارجى والتأخر الداخلى . واليوم وبرغم التقدم فى نواح كثيرة نرى الهجوم على الاسلام أكثر شدة ، نرى هجوما من الخارج ، ومن الداخل ليس هجوما من أعدائه الأجانب الخارجيين بل كذلك هجوما على الظاهرة التاريخية للاسلام

---

(١) أحمد أمين : يوم الاسلام ص ١٧٢ •

(٢) قضى مؤلف هـــذا الكتاب عاما فى هذا المعهد كأســتاذ زائر فى عام ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ •

(٣) الاسلام فى التاريخ الحديث ص ٢٣ •

كحقيقة واقعة وعلى القوة الداخلية لحقه الجوهرى (١) .

ويمتدح (سميث) الأتراك المحدثين لأنهم تخلوا عن الحضارة العربية الاسلامية وأقبلوا على الأخذ بالحضارة الأوروبية ، فهو يقول عنهم : يعنينا موقف تركيا من التصدى للدين الاسلامى ، فالأتراك لم يرتدوا عن دينهم ولم يهجروه ، وانما أخذوا يعيدون النظر فيه . معيدين بحثه من جديد ... ان الأتراك هم الشعب المسلم الوحيد الذى أدرك على وجه التحديد ما يحتاج اليه ، وهم الشعب المسلم الوحيد أيضا الذى استطاع أن يشكل أسسه الفكرية والاجتماعية بشكل يتناسب مع أوضاع المدنية الحديثة . وقد سبق أن قدمنا أن الاسلام يعنى كثيرا بالتاريخ ، وأن الشق التركى من التاريخ الاسلامى هو الشق الوحيد فى المرحلة المعاصرة ، الذى يستطيع أصحابه أن يرقبوه دون أدنى ارتياب ، وهو الشعب الوحيد كذلك بين الشعوب الاسلامية الذى يستطيع أن يطمئن الى أن مشاركته فى التاريخ الاسلامى الحديث كانت ذات أثر فعال (٢) .

الدوافع الاستعمارية :

يفضل بعض المفكرين استخدام لفظ (التسلط) بدلا من (الاستعمار) ، ويعرفونه بأنه «تحكم شعب فى غيره من الشعوب» ، وأداة هذا التسلط المال والقوة ، ومسوغاته ما يزعمون من وجود حق للقوى على الضعيف . ويكون التسلط مقرونا ، فى معظم حالاته بالظلم والطغيان والقسوة (٣) .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٣) الأمير مصطفى الشهابى : الاستعمار ج ١ ص ٢٥ (من مطبوعات معهد الدراسات العربية) .

وللتسلط أشكال أهمها ثلاثة : سياسى ، وديني ثقافي ، واقتصادى أما التسلط السياسى فهو أن يبسط شعب سلطانه على شعب آخر بالحرب أو المعاهدات . ابتغاء للنفوذ السياسى والمجد والعظمة واستخدام الشعوب المحكومة جنودا فى الحروب ، وأمثال ذلك من الأغراض السياسية ، وقد يكون هذا التسلط منبعثا عن الاعتقاد بفلسفة القوة واللذة ، أى فلسفة هيجل ونتشه ولارو شفوكولد وغيرهم ، ممن يدينون بضرورة معاونة الطبيعه على افناء الضعيف ، وعلى تسليط الأصلح للبقاء • وهذه الفلسفة لا تقيم وزنا الا للقوة ، وتجعل الحق خاضعا لها • وكثير من الدول الأوروبية الاستعمارية يسيرها مستعمرون يدينون بفلسفة القوة واللذة . وكل منهم يعتقد أن شعبه هو أرقى الشعوب وأصلحها ، ولهذا وجب على حكومته أن تتسلط وتستعمر ، كما وجب على الشعوب الضعيفة أن تخضع • وهذه الفلسفة لا تجيزها الأديان أو الأخلاق •

أما التسلط الدينى والثقافى فهو بسط شعب سلطانه السياسى على شعب آخر بالحرب أو بغير الحرب لغاية دينية أو ثقافية • فأما الحروب الدينية فمعروفة ، وأما الحرب التى ترمى الى بث فكرة ثقافية فمثالها الحرب التى أثارها رجال الثورة الفرنسية على هولندة وسويسرا وبلجيكا وايطاليا باسم حرية الشعوب والخلاص من أصحاب التيجان ولكن الأوروبيين قلما يتشبثون بفكرة دينية أو ثقافية الا لغاية سياسية • مثل ادعاء الحكومة الفرنسية حينا حماية النصارى فى الشرق ، واغداق فرنسا المال على مدارس اليسوعيين والعازريين والاخوان المريميين والكبوشيين وتشجيع المدارس اللاييك فى البلاد العربية ، انما يرمى هذا كله الى تثقيف أبناء تلك البلاد بثقافة فرنسية بحتة ، وابعادهم عن الثقافة العربية ، حتى يظلوا على زعمهم حربا على بلادهم وعثرة فى سبيل استقلالها وأداة لتسلط فرنسا السياسى • وقد حاولت انجلترا حماية

الأشوريين فى العراق لغـاية سياسية فلم تفلح · وما المدارس والمستشفيـات والرهبنيـات الايطـالية فى الشـام الا أدوات سياسية (١) ·

أما التسلط أو الاستعمار الاقتصادى فهو بسط شعب سلطانه السياسى على شعب آخر بالقوة لغاية اقتصادية · وقد أدى الانقلاب الصناعى فى أوروبا الى حركة استعمارية واسعة ، للاستيلاء على المواد الأولية فى المستعمرات ، وفتح أسواق جديدة ، وغير ذلك من الأهداف الاقتصادية الاستعمارية المعروفة ·

بدأت الأطمـاع الاستعمارية الأوروبية فى العـالم العربى والاسلامى ، منذ مطلع التاريخ الحديث ، حينما كان الشرق العربى خاضعا للحكم العثمانى · وسارت حركة الاستشراق مع هذه الحركة الاستعمارية فى طريق واحد · وكما غزت الدول الأوروبية الشرق الاسلامى بالسيف والحديد والنار ، فقد غزته أيضا حضاريا وفكريا · وبدأ صراع حضارى بين الحضارة الاسلامية والحضارة الأوروبية · وقد صور المرحوم الأستاذ أحمد أمين (٢) هذا الصراع فقال : لم يقتصر غزو أوروبا على مسائل الحضارة المادية ، بل أيضـا غزت الشرق بالأفكار والمعـانى ، فقد اقتبس الشرقيون من الحضـارة الأوروبية التعليم وآراء الأوروبيين فى علم النفس وعلم الاجتماع والأخلاق وما الى ذلك ، واذا كان المسلمون من ذوى حضارة قديمة مأخوذة من حضـارة العرب وما تتابع عليهـا من فرس وأتراك ونحوهما ، وما اقتبسوه من فلسفة يونانية ورومانية ، فقد اضطربت فى أذهانهم وحياتهم المادية الحضارة القديمة التى عاشوا عليهـا قرونا ، مع الحضارة الحديثة اضطرابا شديدا يختلف باختلاف الأمم

---

(١) السهابى : الاستعمار جـ ١ ص ٢٦ ـ ٢٧ ·

(٢) يوم الاسلام ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ·

والأفراد فى الأمة الواحدة . وكان اقتباس القسم المادى من الحضارة أكبر من اقتباس القسم المعنوى . واذا كان هذا الاضطراب حادا ، كان السير على المدنية الغربية سيرا أعوج .

أصاب الدولة العثمانية ضعف شديد ، وأدى ضعف السلطة المركزية فى العاصمة الآستانة الى تفكك الأطراف والولايات ، وتطلع بعض الحكام الى الاستقلال والى الثورة ضد الدولة العثمانية ، مستعينين بدول أجنبية . ففى أوائل القرن السابع عشر ثار الأمير فخر الدين المعنى الثانى فى لبنان على الحكم العثمانى ، واستعان بامارات مسيحية مثل توسكانا ونابلى وأسبانيا والبابوية لتعينه على الانفصال عن الدولة العثمانية ، وهى دول كانت الروح الصليبية لا تزال مسيطرة على علاقتها بدول المسلمين . فعزمت الدولة العثمانية على القضاء عليه ، ففر لاجئا الى حليفه أمير توسكانا ، ونجحت الدولة العثمانية فى قتله سنة ١٦٣٥ ، ولكن اللبنانيين ما زالوا يعتبرون فخر الدين بطلا قوميا كبيرا ، اذ دافع عن كيان لبنان واستقلاله ، وسعى لدعم هذا الاستقلال بالاتصال ببعض الدول الأوروبية ، واقتباس بعض مظاهر الحضارة الأوروبية فى بلاده .

وفى مصر ، ثار (على بك الكبير) على الحكم العثمانى ، وتحالف مع الشيخ ظاهر أمير عكا العثمانى . وتحالف الأميران مع الروسيا . وفى العراق ، اعتمد داود باشا مع الانجليز فى توطيد دعائم حكمه والثورة على العثمانيين (١٨١٧ ـ ١٨٣١) (١) .

وكانت الحماية الفرنسية على مصر والشام هى الصورة الايجابية العسكرية لبداية الأطماع الاستعمارية فى الشرق العربى .

---

(١) انظر كتابنا (القومية العربية من الفجر الى الظهر) ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

ونستطيع أن نقول انها أيضا بداية الاستشراق القائم على دوافع استعمارية · وقد قدم الفرنسيون مزودين بمدنيتهم الحديثة التى تقوم على العلم والاختراع والحرية والمبادىء الديموقراطية · وتقابلوا بهذا كله مع مدنية العثمانيين ، فكانت الغلبة للمدنية الحديثة · ومنذ ذلك الوقت أدرك العرب والمسلمون أهمية الحضارة ، وأيقنوا أنه لا حياة لشعوب الشرق العربى الا باتخاذ الوسائل الحديثة حتى تقاوم الغرب بأساليبه ·

كانت الحملة الفرنسية أول مشروع رمى الى تكوين دولة شرقية من الأجزاء العربية التابعة للدولة العثمانية ، وقد استغل بونابرت مقومات العروبة فلجأ الى اللغة العربية فى كتابة منشوراته ولوائحه ، وطبع كتبا فى تعليم اللغة العربية وهجائها بالمطابع الفرنسية المرافقة للحملة ، وشجع العناصر العربية فى البلاد فكون منها دواوينه وجعلهم أهل مشورته ·

بعد الفتح العثمانى للدول العربية الاسلامية ، استأثر الأتراك بالحكم ، ولم يكتفوا بعدم اشتراك الشعوب العربية فى حكم بلادها ، بل انهم أقصوا العرب عن مناصب الحكومة تماما ، اذ كان نظرية الحكم التركى أن هناك طبقتين متميزتين : طبقة الحكام الأتراك ، وطبقة المحكومين أو الفلاحين ·

ثم جاء نابليون الى مصر وأعلن فكرة اشتراك الشعب فى الحكومة · وأنشأ نابليون ديوان القاهرة من العلماء وجعل لهم حق مناقشة المسائل العامة ، كما أنشأ دواوين الأقاليم · ولم يتنازل الشعب عن هذا الحق بعد جلاء الفرنسيين (١) ·

كانت الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) أول غزو أوروبى

---

(١) انظر كتابنا (القومية العربية) ص ١٣٦ ·

للشرق العربى ، وقد صحب معه عددا كبيرا من العلماء المتخصصين فى سائر فروع المعرفة ، فمنهم الأثريون المستشرقون والمهندسون والأطباء والمترجمون اللبنانيون والمصريون والسوريون ، من أمثال : ميخائيل صباغ (١٧٠٨ ـ ١٨١٦) الذى اتصل بالمستشرقين (دى ساسى) و (كاترمير) وعمل فى المكتبة الوطنية بباريس ، والياس بقطر من مصر (١٧٤٨ ـ ١٨٢١) وهو أستاذ العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ومصنف المعجم العربى الفرنسى ، ونقولا الترك (١٧٦٣ ـ ١٨٢٨) صاحب كتاب (حرب بونابرت مع النمسا) وغيرها من الكتب (١) . وروفائيل زخور (١٧٥٧ ـ ١٨٣١) المولود فى القاهرة وهو من أصل حلبى وكان يقوم بتعليم اللغة العربية فى باريس ثم جعله محمد على فيما بعد مديرا لمطبعة بولاق ، فمترجما فى مدرسة الطب .

وأمر نابليون بتأليف المجمع العلمى المصرى ، وتأسيس مطبعة عربية كان قد استصفاها من الفاتيكان لطبع تصريحاته وبلاغاته ومنشوراته . كما أصدر نابليون ثلاث صحف واحدة منها بالعربية وأنشأ مكتبة ومتحفا ومختبرا (معملا) ومصنعا ومرصدا ومسرحا ، فتحت أبوابها للمصريين . ونشر العلماء الفرنسيون بحوثهم ورسومهم وخرائطهم فى كتاب (وصف مصر) . كما حل (شامبليون) رموز الكتابة الهيروغلوفية بقراءته حجر رشيد (١٨٢٢) وألف لها أجرومية ومعجما (١٨٣٢) فوضع بذلك أساس علم الآثار المصرية ، ومهد السبيل الى العلماء للتنقيب عن عالم عظيم مفقود (٢) .

---

(١) مثل تملك جمهور الفرنساوية (طبعة باريس ١٩٣٩) ، وتاريخ أحمد باشا الجزار (مخطوط) وحوادث الزمان فى جبل لبنان (مخطوط) .

(٢) نجيب العقيقى : المستشرقون جـ ١ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

ورغم جهود العلماء الفرنسيين ، الا أن موقف المصريين العدائى من الحملة الفرنسية قد غطى على هذه الجهود ، فقد قدم الفرنسيون الى الشرق العربى غازين فاتحين ، وكانوا مختلفين عن أهالى البلاد فى الدين والجنس واللغة ، ولذا ثارت الروح القومية فى مصر ، واستبسل فى الدفاع عن الوطن العربى • وقامت ثورتان عارمتان فى القاهرة كانتا من عوامل اجلاء الحملة الفرنسية عن مصر •

ومن الطريف أن نابليون بونابرت ظهر أمام المصريين بصورة المستشرق ، فقد تظاهر باعتناق الاسلام ، وشارك المصريين احتفالاتهم الدينية وخاصة المولد النبوى الشريف ، وارتدى العمامة والجبة والقفطان ، وزار علماء الأزهر فى بيوتهم ، وتناول طعامه بيديه مثلهم كما اعتنق (جاك مينو) القائد الفرنسى الاسلام . وتزوج من مصرية ، ولكن هذه الوسائل لم تقنع المصريين واستمروا فى عدائهم للحملة الفرنسية • وظهرت الروح الوطنية المصرية واضحة ، حتى أن المصريين أصبحوا يعملون على الاستقلال أيضا عن الدولة العثمانية •

وفى فترة حكم محمد على فى مصر ، توافد عدد كبير من المستشرقين ، فقد رأى محمد على تدعيم الجيش المصرى من أجل تحقيق سياسة تكوين دولة واسعة يحكمها طوال حياته ويتوارث أبناؤه الحكم فيها من بعده ، كما رأى محمد على أن ينشىء المعاهد والمدارس العليا من أجل مد الجيش بحاجاته من الأطباء والمهندسين والمهنيين وغير ذلك • واعتمد محمد على على خبراء أجانب أوروبيين فى تدريب الجيش ، وفى المعاهد والمصانع ، ولذا قدم الى مصر كثير من هؤلاء الخبراء ، واستشرق بعضهم ، وعاش طوال حياته فى مصر وتأثر بالحياة الشرقية •

ومن أشهر هؤلاء ، الدكتور كلوت بك الذى قام بانشاء مدرسة الطب فى مصر سنة ١٨٢٧ الذى استعان بكثير من الأساتذة

الأوروبيين ، معظمهم من الفرنسيين ، ولكلوت بك كثير من المؤلفات الطبية القيمة ، وله فضله فى مكافحة الكوليرا فى سنة ١٨٣٠ والطاعون سنة ١٨٣٥ • ومن هؤلاء المستشرقين أيضا الكولونيل سيف ، وهو فرنسى الأصل ، وعهد اليه محمد على بتنظيم الجيش المصرى على الأساليب الحديثة ، وقد أصبح اسمه (سليمان باشا الفرنساوى) (١) •

رأى السلاطين العثمانيون أن يقووا قبضتهم على العالم العربى بحيث تظل الولايات العربية خاضعة للحكم العثمانى الى الأبد • واتبعوا فى سبيل ذلك وسيلتين : الأولى الاصلاح ، والثانية الدعوة الى الجامعة الاسلامية • وقد أثرت الوسيلتان فى حركة الاستشراق ، وأدت الى اتساعها ، والى تدفق المستشرقين على أقطار الشرق العربى •

بدأت حركات الاصلاح فى تركيا فى عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) واتجهت فى أول الأمر نحو اصلاح الجيش بادخال النظم الأوروبية الحربية الحديثة ، ولكن الانكشارية وقفت عقبة فى سبيل الاصلاح وأرغموا السلطان على التنازل عن العرش • ثم تمكن السلطان محمود الثانى من القضاء تماما على الانكشارية ، وكون جيشا قويا استطاع أن يقوم بأعمال حربية عظيمة فى قتاله الوهابيين فى نجد ، واليونانيين فى المورة ، ثم قتال محمد على • ثم أصدر خلفه وابنه السلطان عبد الحميد (١٨٣٩ ـ ١٨٦١) منشور (الكلخانة) وفيه يؤمن جميع رعايا الدولة العثمانية على اختلاف توصياتهم وأديانهم ، على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم • ثم أصدر السلطان عبد العزيز (التنظيمات الخيرية) •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ٢٩٢ (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٧) •

وخلاصة الاصلاح : تنظيم التعليم ، وانشاء مدارس عالية ، وتنظيم القضاء ، وانشاء محاكم تجارية ومختلفة ، وتنظيم شئون التجنيد ، وتنظيم ميزانية الدولة ، والشئون الادارية ، وحددت اختصاصات الولاة وكبار الموظفين بحيث يرتبطون جميعا بالحكومة المركزية .

اتسعت حركة الاستشراق ، واستعانت الدولة العثمانية بكثير من الخبراء الأجانب فى جميع الشئون . وارتبط الاستشراق بازدياد أطماع الدول الأوروبية فى الولايات العربية الخاضعة للعثمانيين ، وسعت وراء نيل امتيازات واسعة ، وتدخلت لتأييد بعض الطوائف مما أضعف هيبة الدولة العثمانية ، وازدياد حركة الاستشراق . مثل أطماع الفرنسيين فى سوريا ولبنان وشمالى افريقية ، والانجليز فى مصر والسودان والعراق والخليج الفارسى والبحر الأحمر ، والألمان فى استغلال المرافق الاقتصادية للدولة ، والايطاليين فى ليبيا .

رأى الأتراك أن الطريق الى الاصلاح هو توطيد نفوذهم فى الولايات العربية ، مستفيدين من الحضارة الأوروبية والخبراء الأجانب . بينما كان العرب يرون أن الاصلاح هو احياء الروح الوطنية وبعث الروح القومي والتغنى بأمجاد العرب واحياء التراث العربى ، ولذا لم يرض الكثير من العرب من تدفق هؤلاء الخبراء والمستشرقين الأوروبيين على الشرق العربى .

وفى خلال حركات الاصلاح ، لم تتوقف الدول الأوروبية عن مد نفوذها فى البلاد العربية عن طريق تأسيس مدارس تنشر لغتها وثقافتها . وكانت المدارس الأجنبية تؤسس فى المدن والقرى المسيحية فتجذب أبناء العرب غير المسلمين . وقد وجدت اللغة العربية موئلا فى المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية ،

وانتشر تعليمها بين المسيحيين أكثر من انتشارها بين المسلمين . وذلك لأن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم ، بل ظلوا يرسلون أولادهم الى المدارس الحكومية ، ولغة التعليم في هـــذه المدارس كانت اللغة التركية (١) .

خابت آمال العرب فى حركات الاصلاح على الطريقة التركية ، مما أدى الى توتر العلاقات بين العرب والأتراك . فرأى السلطان عبد الحميد أن يلجأ الى طريقة جديدة تربط العرب بالأتراك . وهى (الجامعة الاسلامية) .

ففى منتصــف القرن التاسع عشر تعرض العـــالم العربى والاسلامى للأطماع الأوروبية ، فقد فتح الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ ، واستولت الروسيا على القوقاز ، وسيطرت انجلترا على الهند ، وهولنده على أندونيسيا . وخاف المسلمون أن يســـيطر الأوروبيون على العالم الاسلامى جميعه ، ولذا فكر المسلمون فى جمع كلمتهم للوقوف أمام التيار الأوروبى الاستعمارى فنشأت فكرة الجامعة الاسلامية .

وساعد على ظهور فكرة الجامعة الاسلامية ، ظهور جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) فقد كانت تعاليمه وآراؤه من الأسس التى قامت عليها فكرة الجامعة الاسلامية . وقد قامت دعوته على أساسين : أولهما اصلاح حال المسلمين وتلقينهم الحضارة الأوروبية الحديثة . وثانيهما تحرير الشرق من سيطرة الغرب ، ولفت أنظار المسلمين الى ما وصلوا اليه من ضعف وتأخر نتيجة عدم مسايرتهم الحضارة الأوروبية الحديثة حتى طمع الأجانب فى بلادهم . ودعا جمال الدين المسلمين الى الاتحاد ليقفوا فى وجه الاستعمار .

---

(١) من محاضرات المرحوم الأستاذ ساطع الحصرى .

وكانت زيادة الأطماع الأوروبية فى العالم العربى والاسلامى عاملا هاما فى نجاح الجامعة الاسلامية • ورحب بالفكرة زعماء وطنيون مثل مصطفى كامل فى مصر ، كما ساعد على انتشارها تقدم طرق المواصلات ، ونهضة الصحافة • كما قامت العوامل الاقتصادية بدور كبير فى نجاح الجامعة الاسلامية • فقد كانت الأطماع الاقتصادية الأجنبية تسير جنبا الى جنب مع الأطماع السياسية ، فقد تدفقت على الأقطار العربية والاسلامية رؤوس الأموال الأجنبية ، واستثمر الأجانب مرافقها ، وأدى الاستعمار الاقتصادى الى استعمار سياسى ، ورأى المسلمون أن الجامعة الاسلامية تخلصهم من الاستعماريين على السواء • ولكن سقوط السلطان عبد الحميد بعد عزله فى سنة ١٩٠٨ كان نذيرا بنهاية فكرة الجامعة الاسلامية •

فقد خابت آمال أوروبا فى الشرق الأقصى • أى الصين واليابان — فاتجهت آمالها الاستعمارية الى الشرقين الأوسط والأدنى ، فصوبت اليهما سهام الاستعمار • ثم نهض المسلمون فى بلادهم • وخشى الاستعمار الأوروبى نتائج هذه النهضة ، وعندئذ أصبح للجامعة الاسلامية معنيان : أحدهما فى أذهان المسلمين فى الشرق ، والثانى فى أذهان الأوروبيين فى الغرب •

فأما المعنى الأول لفكرة الجامعة الاسلامية فى أذهان المسلمين فهو النهوض ببلاد الاسلام نهوضا تستيقظ به من سباتها وتتخلص من النفوذ الأوروبى الذى كان عاملا حقيقيا فى تخلفها، لا فى تقدمها كما زعم القوم • وأما المعنى الثانى لفكرة الجامعة الاسلامية فى نظر الأوروبيين فهو الخوف من أخطار الجامعة الاسلامية • فقد وجد المسلمون فى هذه الفكرة السبيل الوحيد لانقاذهم من براثن الاستعمار الأوروبى (١) •

---

(١) من مقال الدكتور عبد اللطيف حمزة بجريدة الأهرام بعنوان « الجامعة الاسلامية والجامعة العربية » •

اجتهد المرحوم الأستاذ أحمد أمين (١) فى تقنيم الحضـــارة الأوروبية ودورها فى حضارة العالم الاسلامى ، فقال : كانت الحضارة الأوروبية ذات أثر تقدمى كبير فى العالم الاسلامى ، ولولاها لظل يرسف فى قيوده التى كان يرسف فيها ، ولكنها لا تخلو من عيوب ، فقد باعدت بينه وبين الحضارة الاسلامية القديمة ، ولم تكن ناتجة من نفس المسلمين كما كانت الحضـــارة الغربية ناتجـــة من نفس الغربيين . بل هى دخيلة عليهم دخول الأجنبى بلادهم ، ومثلها مثل شجرة أريد تضخيمها بأوراق شجرة أخرى من الخارج لا بنموها الطبيعى من الداخل .

ان الحضارة الغربية قد نشأت ولها من ذاتها غالب عناصرها وخواصها وصفاتها نشوءا طبيعيا متدرجا مجتازة الأدوار المختلفة على مقتضى سنة النشوء ، أما الشرق فهو فى كثير من مواضع الانقلاب يطفر فى تحوله طفورا اذ أن ما يأخذه عن الغرب ويقتبسه منه دفعة واحدة قد نقضت على تكامله عند الغربيين الأجيال والقرون ، فكانت النتيجة أن غلبت صفة الطفرة لا صفة النشوء المترقى على تطور الشرق هذا التطور السياسى والاقتصـــــادى والاجتماعى والدينى وغير ذلك .

ان حركة الاستشراق وصلت الى الشرق العربى تحت دوى المدافع وصليل السيوف ، فاستقبلها المسلمون والعرب استقبالا سيئا ، فقد نظر المسلمون الى أفكار المستشرقين على أنهـــا أفكار مسيحية ، لا على أنها أفكار أوروبية أو عالمية وكلما ازداد ضغط الدول الأوروبية على الشرق العربى ، وعامل الأوروبيون العرب والمسلمين معاملة سيئة ، واحتكروا مواردهم الاقتصادية ، زاد عداء العرب للمستشرقين وأفكارهم . وتأثرت حركة الاستشراق بالصدام

---

(١) يوم الاسلام ص ١٦٠ .

الذى ظهر بين الشرق والغرب ، وبين الأطماع الاستعمارية الأوروبية ، والروح القومية العربية التى ترمى الى تحقيق الاستقلال والتحرر مما هو أجنبي .

الدوافع العلمية :

دخل المستشرقون ميدان تاريخ العرب والاسلام منذ اللحظة التى اتجهت فيها ميولهم الى الكتابة عن الشرق لأغراض غير علمية أول الأمر ، كما رأينا فى هذا الفصل . ثم استحالت حركة الاستشراق الى أغراض علمية بعد ذلك . واذا كان الغربيون قد غزوا بلاد العرب والاسلام تلك الغزوات السياسية والعسكرية والاستعمارية التى نعرفها ، والتى أذن الله لنا أن نتحرر منها ، فان المستشرقين منهم قد غزوا تاريخ العرب والاسلام ، فأخذوا يقلبون وجوه البحث فيه ، وألفوا فيه كثيرا من الكتب (١) .

يحدد المستشرق (بارت) (٢) منتصف القرن التاسع عشر موعدا أصبح فيه الاستشراق علما ، بعد أن تخلص المستشرقون من الآراء القديمة ، ومن كل لون من ألوان الانعكاس الذاتى ، وبعد أن اعترفوا لعالم الشرق بكيانه الخاص وحياته الخاصة ، وعند ذلك اجتهد المستشرقون فى نقل صورة موضوعية للمشرق ، وفهم الموضوعات الشرقية فهما موضوعيا . واستمرت جهود المستشرقين نحو تنقية الاستشراق من شوائبه الدينية والاستعمارية ، حتى تاريخنا المعاصر ، حيث وصل الاستشراق الى مرحلة التحول النهائى ، فأصبح علما قائما على النقد التاريخى .

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٥ .

(٢) الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الالمانية ص ١٧ .

وحدد (بارت) (١) مهمة المستشرق المعاصر ، فقال ان واجبه هو : اختراق الأفق الفكرى الذى تفرضه البيئة حولنا ، والقاء نظرة الى عالم الشرق ، لكى نتعلم من الكيان الغريب علينا كيف نحسن فهم امكانيات الوجود الانسانى ، وكيف نحسن بهذا فهم ذاتنا نحن فى نهاية المطاف ·

كان استقلال الدول العربية والاســـلامية من عوامل اتجاه الاستشراق هذه الوجهة العلمية ، فقد تخلى كثير من العرب والمسلمين عن نظرة الشك والخوف والحذر التى كان ينظرونها الى الاستشراق والمستشرقين · كما أن انهيار النفوذ الأوروبى الإستعمارى فى معظم الدول العربية والاسلامية ، صرف المستشرقين الى الجوانب العلمية ، فقد انهار الاستعمار الذى كان سند الاستشراق ، ولذا رأى كثير من المستشرقين أن يصبح العلم والحقيقة أساسا لاستشراقهم ·

وأصبح كثير من المسلمين ينظرون الى الحضارة الأوروبية ، على أنها حضارة المستعمرين الطامعين ، بل على أنهـــا حضــــارة عالمية حديثة ، فقد انهار الرباط الذى كان يربط الاستعمار والحضارة الغربية · ومن ثم تغيرت النظرة الى التاريخ العربى والاسلامى ·

وفى ذلك يقول المستشرق الأمريكى المعاصر (ولفرد كانتويل سميث) (٢) : ان آراء القرن التاسع عشر قد تلاشت أمام أفكار القرن العشرين بعد نهضة العالم الاسلامى · وبدأ اقبال المسلمين على الحضارة الأوروبية ، التى كان قد أدخلها المستعمرون فقد فقدت هذه الحضارة وصفها القديم بأنها (غريبة) وأصــبحت حضــارة (عصرية عالمية) ، انتظمت المسلمين وأصبح رفضها بمثابة الرغبة فى العزلة ، أو بعبارة أخرى الزهد فى الحياة فى القرن العشرين ·

---

(١) المصدر السابق ص ١٣ ·

(٢) سميث : الاسلام فى التاريخ الحديث ص ١٠٠ ــ ١٠١ ·

وان معرفة الاسلام معرفة حقة لتنتهى الى القول بأن اســتقلال المسلمين لا يعنى العزلة ، فالحرية مشاركة .

ولكن رواسب الأطماع الاستعمارية الأوروبية لا تزال باقية فى نفوس بعض العرب والمسلمين ، فظلوا ينظرون نظرة شك وحذر الى الحضارة الأوروبية وأفكار المستشرقين ، فيقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين (١) : أخفقت محاولات التوفيق بين الاسلام والحضارة الحديثة ، ولكن فشلها لا يعود الى تعاليم الاســلام نفسه بل الى أسباب أخرى أهمها أن الحضارة الحديثة تقدمت اليهم أول ما تقدمت وهى تحمل فى أحدى يديها المخترعات الحديثة ونتاجها فى العلوم والفنون ، وفى الأخرى وسائل الاستغلال والاستعمار ، فلذلك قبلها المسلمون كارهين مكرهين ، ولو تقدمت اليهم على غير هــذا الوجه لقبلوها قبولا حسنا كما قبلوا الحضارة اليانانية والفارسية والتركية من قبل . والثالث أنها جاءتهم على يد بعض المسيحيين المتعصبين الذين اكتووا بنارهم من أيام الحروب الصــليبية الى اليوم .

أصبح الاستشراق فى العالم الأوروبى الحديث كله مادة علمية معترف بها من الجميع . وأصبحت مادة علمية جديرة بالوجود ، وهى ممثلة فى كل جامعة من الجامعات بكرسى رسمى يشغله أستاذ ، ثم هناك عدد عظيم من وظائف المدرسين والمعيدين فى تخصص الاستشراق ، الى جانب الأساتذة . ويعنى هذا أن الناشــئة من المستشرقين يلقون ما يؤمن مستقبلهم من الناحية المالية نوعا ما . والمجتمع الأوروبى ، والحكومات الأوروبية ، يضــع تحت تصرف المستشرقين الامكانيات اللازمة لاجراء بحوث الاستشراق وللحفاظ على نشاط المستشرقين التعليمى فى هذا المضمار (٢) .

(١) يوم الاسلام ص ٣١٥ .

(٢) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ١٢ .

ولكن حركة الاستشراق فى التاريخ المعاصر اصطدمت بالفروق القائمة بين الدنيوية والمادية الأوروبية ، والروحانية الشرقية . ويدافع (ولفرد كانتويل سميث) (١) عن الدنيوية الأوروبية ، ويصفها بأنها عالمية ، فيقول : ان الفروق الجامدة بين المدنيات لا وجود لها اليوم . فالحضارة الحديثة رغم أنها نشأت فى أول الأمر فى الغرب والشرق . فالدنيوية ، اذن ، ولو أنها مستحدثة بوجه عام ، الا أنها لن تصبح غريبة ، بل عالمية تسرى فى كل الحضارات الأخرى .

وحينما تطورت حركة الاستشراق فى العصر الحديث ، وبدأت تأخذ الطريق العلمى بدأ الصدام بين فلسفة الشرق ، وفلسفة الغرب ، وكان لا بد لنجاح جهود المستشرقين من تقارب هاتين الفلسفتين ، بحيث تكون هناك فلسفة لا هى شرقية بحتة ، ولا هى غربية خالصة . وفى ذلك يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين (٢) : يجب أن يكون للعالم فلسفة واحدة تسيره لا فلسفتان والذى يقود العالم الآن الفلسفة الأوروبية فى عقائدها ونظرياتها ونظام حياتها ، وهى فلسفة ناقصة تعتمد على المادة والقوة . وفلسفة الشرق ناقصة ، تعتمد على الروح ولا عقل لها ، واعتمادها على الروح البحت جعلها عرضة للخرافات والأوهام وان كان الانسان جسما وروحا ، وجب أن تجاوب فلسفته هذين العنصرين .

ويرسم المرحوم الأستاذ أحمد أمين أيضا الصورة التى يجب أن تكون عليها المدرسة العلمية الجديدة ، ومنهجها ، فيقول : ولا ينقص المسلمين فى الوقت الحاضر الا شىء واحد ، وهو مدرسة جديدة ذات منهج جديد ، مدرسة لا شرقية ولا غربية ، فان المدرسة

---

(١) الاسلام فى التاريخ الحديث ص ١٠٢ .

(٢) يوم الاسلام ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

الشرقية ، أعنى مدرسة العصور الوسطى لم تعد صـــالحة للعصر الحاضر لأنها تعفنت بمرور الزمان • والمدرسة الغربية معيبة فى بلدانها ، فكيف اذا قلدت في غير بلادها ؟ اننا نريد مدرسة تضع منهج العلوم كمنهج البلاد الأوروبية ، مع خلاف بسيط وهو أن يطعم منهج العلوم بالنية الحسنة ، نية خير الانسانية لا تدميرها • بل نحن متسامحون اذا وصفنا العلم بأنه أوروبى ، لأن العلم لا وطن له ، ولا يقتصر على خدمة دين دون دين • أما فى الأدب والتاريخ ، فمنهج مدرستنا غير منهج مدرستهم • انهم سمموا بأشياء كثيرة ، سـمموا بقولهم ان الفن للفن ، وبقولهـم : ان الأديب حر يقول ما يشاء . وسمموا بمنهجهم التاريخى الذى يقضى بأن مركز العالم الرجل الأبيض ، ومن عداه فعلى هامشه ، الى غير ذلك (١) •

ورغم تطور حركة الاستشراق ، ونبذها الجوانب التعصبية التى كانت من طابع العصور الوسطى ، فقـد استمر الاستشراق يهتم بالدراسات الاسلامية أكثر من اهتمامه بالدراسات العربية • ويبرر المستشرق (بارت) (٢) هذا الاتجاه فيقول : يرتبط الاســـلام بالعروبة بعلاقة تبادل فريدة فقد كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة فى بوادى وواحات شبه الجزيرة التى سميت نسبة اليهم يعيثون فسادا ، حتى أتى محمد ودعاهم الى الايمان بالله واحد خلق بارىء وجمعهم فى كيان واحد متجانس ، وانطلقت آيات وســور القرآن لأول مرة فى مكة ، وهى أقدم أعمال الثقافة الاسلامية العربية المدونة • ولكن العالم الواسع المترامى الأطراف ما كان ليحس بالعرب لو لم يتحولوا بفضل صلتهم بالاسلام الى عامل من عوامل القــوة السياسية • لهذا كانت ظاهرة الاسلام ظاهرة تلقى أسبقية وأفضلية

---

(١) يوم الاسلام ص ٢١٩ •

(٣) الدراسات العربية والاسلامية ص ٢٠ •

فى ميدان البحوث الاستشراقية أو على الأدق فى ميـدان البحوث العربية الاسلامية ٠

وأدت جهود المستشرقين ، واهتمامهم بالمنهج العلمى ، وتطوير الدراسات الاسلامية والعربية ، الى ظهور مفاهيم جديدة لألفـاظ (الثقافة) و (المدنية) و (الحضارة) ٠ وأصبحت (الثقافة) تقابل ما يسميه الغربيون Culture فبين اللفظين شبه فى أصل المعنى ، اذ كلتاهما تعنى التهذيب والتربية والتنمية ، ومن هنا أصبح المدلول العام لكل من هاتين الكلمتين ـ العربية والأفرنجية ـ الجانب الروحى المعنوى من حياة الفرد أو الجماعة ٠

أما كلمة (مدنية) فمن السهل أن نصطلح على أن نعنى بها جانب العلم والمادة والاختراع من حياة الأمم ٠ فالمدنية الغربية مثلا يقصد بها ذلك الرقى العلمى والمادى الذى حققته أوروبا وأمريكا فى العصر الحديث والذى قام على أساس الطريقة والنظريات العلمية وما أدت اليه من اختراع ، ومن تسخير لقوى الطبيعة ، وتحكم فى عناصرها ، وما كان لذلك من أثر فى المعيشة وأساليبها ، وفى السلم والحرب ، والصناعة والزراعة وما اليها ٠

ولكن هناك من يستعمل كلمة (حضارة) مرادفة لاستعمال كلمة (مدنية) وهما تقابلان الكلمة الغربية Civilization

ومن يستعمل كلمة (حضارة) بالمعنى الواسع الذى يشمل (الثقافة والمدنية) أى يشمل ظواهر الحياة الروحية والحياة المادية على السواء ٠ فاذا تحدثنا عن حضارة الاسـلام قصدنا ما وضعه الاسلام من أسس للعقيدة والأخلاق ونظم الحياة الفردية والجماعية ، وما أنتجته البيئات الاسلامية من أدب وفن وفلسفة ، وما وصل

اليه علماء تلك البيئات من نظريات ، وما أبدعوه من مخترعات (١) .

اهتم المستشرقون بتاريخنا الحضارى ، وهم يعتبرونه ركنا أصيلا فى دراسة أدبنا ولغتنا وعلومنا ، ويرجع اليهم الفضل فى ابراز المقومات الكبرى والمعالم الرئيسية لحضارتنا الاسلامية . فقد أبرزوا أثر الاسلام فى حضارات الأمم الأخرى ، وكيف تأثرت بها حضارته ، كما أوضحوا أثر الحضارات الاسلامية فى حضارة أوروبا وأوضح المستشرقون أن الاسلام لم يكن مجرد ثقافة روحية ،ولم تنحصر حضارته فى الأدب والفن والفلسفة والتصوف ، ولم تكن الحضارة الاسلامية تراث جنس واحد أو أمة خاصة من الأمم ، فقد أنشأ الاسلام حضارة واسعة غنية ،فيها الروح والمادة،وفيها المعرفة والعمل ، وفيها الأدب والعلم ، وقد اتسع صدرها لكل نافع من ذخائر الحضارات القديمة ، وطبعت تطور الانسانية بطابعها عدة قرون ، ثم تلقى الغرب منها مبادىء النهضة فى العصور الوسطى ، وقد اعترف المستشرقون بذلك ، وأخرجوا عديدا من الأبحاث فى هذا المجال .

وكان فهم المستشرقين للاسلام وطبيعته وروحه ، يحدد مدى نجاحهم فى دراسة التاريخ الاسلامى والحضارة ، وكلما وضحت صور الاسلام فى أذهانهم ، أصبحت أبحاثهم واقعية وحقيقية وذات قيمة علمية . كما أن فهم المستشرق للاسلام يبعده عن تأثره بحضارته الغربية المادية العصرية الدنيوية . وفى ذلك يقول المستشرق الأمريكى المعاصر (ولفرد كانتويل سميث) (٢) : يمر المجتمع الاسلامى اليوم ، شأن بقية الجنس البشرى بمرحلة انتقال خطيرة ، والذى

---

(١) محمد خلف الله أحمد : الاسلام والحضارة ص ١٣ ـ ١٤ . (طبعة وزارة الارشاد القومى) .

(٢) الاسلام والتاريخ الحديث ص ٩ .

يميز هذا المجتمع أن أعضاءه يواجهون الحياة العصرية ، بحيرتها وفرضها ، بوصفهم ورثة تقليد فريد والسمات المميزة لهذا المجتمع هي : ايمان ، واسلام . وماض عظيم . ان التطورات التى حدثت فى العالم الاسلامى كثيرة وجوهرية لدرجة تجعلها تصعب على الفهم، على أن هذا الفهم لا غنى عنه لغير المسلمين حتى يقيموا صلاتهم بالعالم الاسلامى على دعائم من الفهم والادراك كما أن فهم الأحداث الجارية فى العالم الاسلامى انما يتضمن فهما لصفتها الانسانية. فان عقيدة المسلم ، صفة وشكلا ، لتؤثر فى تطور مجتمعه سياسيا واقتصاديا وحضاريا . اننا فى حاجة الى فهم شامل وواضح لماهية الاسلام ، وماهية الحياة العصرية ان أردنا فهم حالة العالم الاسلامى . فان الاسلام قوة ، وكان فى حركة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا .

منذ أوائل النهضة الأوروبية احتلت دراسة الفلاسفة المسلمين مكانها فى الجامعات القديمة مثل باريس ولوفان ، وظهر أثر الفكر الاسلامى فى بعض الفلاسفة الغربيين ، مثل (ديكارت) وترجمت بعض روائع الآداب الشرقية مثل « ألف ليلة وليلة » الذى ترجم الى الفرنسية فى نهاية القرن السابع عشر ، ثم ترجم بعد ذلك الى غيرها من اللغات . واتجهت العناية الى دراسة سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام . وبدأت تظهر الكتب الأوروبية عن الاسلام وتاريخه ، والترجمات المختلفة للقرآن ، وأسست الجمعية الأسيوية فى انجلترا وفى فرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وأخذ العلماء الأوروبيون ينقبون عن المخطوطات الشرقية ويحققونها وينشرونها .

والحق أن كثيرا من كتب المراجع التى نعتمد عليها اليوم فى دراساتنا العربية والشرقية انما يرجع الفضل فى ظهورها وتيسير الانتفاع منها الى أولئك العلماء من الانجليز والفرنسيين والألمان والايطاليين وغيرهم .

وفى الأعوام ١٨٣٣ و ١٨٤٣ ظهرت مؤلفـات فتحت العصر الحديث فى البحث التاريخى النقدى لحياة محمد وتاريخ ظهور الاسلام · من هذه المؤلفـات (النبى محمد ، حياته وتعاليمه) و (مدخـل تاريخى نقدى الى القرآن) من تأليف (جوستناف فايل ١٨٠٨ ـ ١٨٨٩) ، وهذا الكاتب من أصل يهودى ، نال تربيـة تلمودية ، ثم درس بالجامعات الألمانيـة وعرف المنهج التاريخى · ويمتاز كتابا (جوستناف فايل) بأنهما من ناحية الموضـوع أكثر شمولا · وكتاب السيرة خاصة يستحق أن يعتبر فاتحة عصر جديد · واذا كان الكتابان لا يجدان اليوم قراء يحفلون بهما ، فمرد ذلك الى أن البحث فى حياة محمد (عليه الصلاة والسلام) قد تقدم فى هذه الأثناء ، وظهرت نتائجه فى منشورات حديثة قريبة المنال · وقد استعمل (فايل) فى سيرته كل المصادر التى أمكنه الوصول اليها بكل الطرق ، ورحل خاصة الى مدينة (جوتا) ليبحث فى المكتبة الأميرية بها عن مخطوطات تختص بموضوعه · أما كتـابه (مدخل الى القرآن) فقد قسم فيه السور المكية لأول مرة الى ثلاث مجموعات ، تقسيما أخذ عنه (نولدكه) فيما بعد · وقد أتبع (فايل) كتابه (محمد النبى) بعد ذلك بكتاب فى ثلاثة مجلدات هو (تاريخ الخلفاء) أكمله بكتاب (تاريخ الخلافة العباسية فى مصر) · وفى هذه المصنفات كذلك استخدم المصادر الأولى بعد تمحيص مادتها وتقديرها قدرها على نحو استقلالى (١) ·

هذه هى بداية اهتمام المستشرقين الألمان بتاريخ الرسـول والتاريخ الاسـلامى على أسـاس منهجى علمى · أما المستشرقون الفرنسيون ، فقد اهتموا أيضـا بالدين الاسلامى والدراسـات التاريخية ، فكتب (بودى) حياة محمد (سنة ١٦٧١) وهو الكتاب

---

(١) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ٢١ ـ ٢٢ ·

الأول الذى وقف به الفرنسيون على الاسلام · وتناول المستشرقون الفرنسيون ترجمة (ماراتشى) الراهب الايطالى (بادوى ١٦٩٨) بالنقد والتعليق ، ونقلوا ترجمة الانجليزى (بريدو) الى الفرنسية (١٦٩٩) · وفى سنة ١٧٣٠ طبع الكونت (دى بو لتفلبيه) تاريخ العرب وحياة محمد ، فأظهره بمظهر النابغة ورسول خير الى الجزيرة العربية · وفى سنة ١٧٨٨ كتب (دى باستوريت) كتابا التوفيق بين ديانات الشرق الثلاث زرادشت وكونفيشيوس ومحمد ، فأصاب الاسلام حظ موفور ، وأطرى (لامارتين) النبى العربى فى كتابه (تاريخ تركيا) ، وخصه (ريمون ليروج) بسيرة رائعة · ثم ازدادت عناية الفرنسيين بالشرق الأدنى وشمالى أفريقية (١) ·

كما ساهم المستشرقون الايطاليون فى الدراسات العربية والاسلامية فى القرن التاسع عشر ، فقد كانت ايطاليا فى مقدمة دول الغرب التى اتصلت بالشرق نوعا ، ونالت الثقافة العربية واللغات الشرقية من الترجمة والحفظ والتعليم والنشر ، بفضل الفاتيكان ، حظا موفورا موصولا · وفى القرن ١٩ نظمت ايطاليا دراسة اللغات الشرقية وعهدت بها الى اعلام المستشرقين من أمثال : أمارى ، وسياباريللى ، وبوناتزيا ، واغناطيوس جويدى ، والأسقف بوجاردينى ، ونللينو وغيرهم (٢) ·

وكان الاستشراق الانجليزى بين أول وأوثق وأوسع ما عرفته أوروبا من استشراق منذ اتصال بريطانيا بالشرقين الأوسط والأقصى اتصالا ثقافيا وعسكريا واقتصاديا واستعماريا · وفى خلال ذلك اتخذ طابعه العلمى الخالص عندما توفرت للمستشرقين أسبابه ، وتنوعت أغراضه ، وانقطعوا اليه ، وأخلصوا فيه ·

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون ج ١ ص ١٧١ ·

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٨ ·

وفى مطلـع القرن الثامن عشر ، ازدهر الاسـتشراق متأثرا بعوامل عديدة من أشهرها : انشاء كرسيين جديدين للعربية فى جامعتى أكسـفورد وكمبريدج ، واسـترعاء التوسع الأوروبى فى الشرق الأقصى ، ولا سيما الهند ، اهتمام العلماء . ثم اختتام القرن الثامن عشر بحملة نابليون على مصر ، ومن صحبهـا من العلمـاء ومعظمهم مستشرقون ، فاتصل الشرق الأدنى بأوروبا فى الثقافة والسياسة والاقتصاد اتصالا وثيقا ، وتبين منه أن العربية أصل كل ثقافة اسلامية فى أية لغة من اللغات .

وفى القرن التاسع عشر ، استمر ذلك الازدهار ، على تطور كبير فى الدراسات العربية ، بفضل ما نشره علماء حملة نابليون ، وتخريج مدرسة (دى ساسى) الفرنسية جيلا كاملا من المستشرقين الأوروبيين ، وانشاء كرسى للعربية فى جامعة لندن ، وتأسيس الجمعيات الأسيوية واصدار مجلاتهـا ، واتاحة الفرصـة لمعظم المستشرقين فى زيارة الشرق الأوسط فتوافدوا عليه من مختلف الجامعات الأوروبية ، وتبعهم عدد كبير من الرواد والرحالة والعلماء فى حين لم تكن هذه الفرصة ميسرة لغالبية قدمائهم . ولمـا عاد الانجليز الى انجلترا تعـاونوا على التدريس والترجمـة والتحقيق والتصنيف ، فتوفر لجامعة كمبريدج ثلاثة من مشاهير المستشرقين هم : بيفان ، ونيكولسون ، وبراون .

وقد تناولت دراسات المستشرقين موضوعات شتى من اللغات والآداب والعلوم والفنون والعقائد والتاريخ والجغرافية . هذا عدا الذين نشطوا للتنقيب عن الآثار وحل رموزها ووصف رحلاتهم ، فجلوا كثيرا من بلاد العرب وتراثها للعالم (١) .

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ابتدأت سلسلة المؤتمرات الدولية لأولئك المستشرقين ، يعرضون فيها ما وصلوا اليه فى البحوث الكلاسيكية الاسلامية والعربية والشرقية ، ويعقد بعضهم أواصر الصلات مع بعض ، ومع البارزين من العلماء الشرقيين .

وكان لمصر ، ولا يزال ، جولات موفقة فى تلك المؤتمرات . ففى المؤتمر الذى انعقد فى جنيف سنة ١٨٩٤ قدم شوقى ملحمته الخالدة :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

وفى هذه المؤتمرات برزت جهود العلماء المصريين والشرقيين فى مختلف فروع الاستشراق ، وأصبحت لهم مكانتهم فى أوساط المستشرقين وفيما تقوم به من مشروعات علمية .

أما المرحلة العلمية التى وصل اليها الاستشراق الآن ، فهى مرحلة العناية بالاسلام فى أوضاعه واتجاهاته الحديثة . فلم تعد الدراسات الشرقية الكلاسيكية هى الشغل الشاغل للمستشرقين المحدثين ، ولمختلف الجمعيات والمعاهد وأقسام الدراسات الشرقية فى الجامعات الأمريكية والأوروبية ، بل انتقلت العناية الى دراسة الأمم الاسلامية فى نهضاتها الحديثة ، والى ما ينشأ فيها من حركات تجديدية واصلاحية ، والى مقدار تأثير التعاليم الاسلامية الأصيلة فى تفكير الشعوب الاسلامية المعاصرة ، وماذا بين تلك الشعوب من مظاهر الاتفاق أو الاختلاف فى النزعات وألوان التفكير ، وما مدى كل واحدة فى التوفيق بين تعاليم الدين ومقتضيات الحياة العصرية المعقدة ، وعلى الأخص فى التشريع ونظم الاجتماع والاقتصاد وأساليب

الحكم ، وهل هناك معضلات تواجهها هذه الشعوب فى التوفيق بين المعتقدات الدينية ونتائج الفكر العلمى الحديث (١) ٠

ومن أشهر المستشرقين الذين يمثلون هذه الاتجاهات الحديثة المستشرق الأمريكى المعاصر (ولفرد كانتويل سميث) الذى كان مديرا لمعهد الدراسات الاسلامية وأستاذا للدين المقارن بجامعة ماكجيل بمونتريال بكندا ٠ وقد أقام فى لاهور بضعة سنوات يدرس الاسلام وتاريخه ، وطاف ببعض أقطار الشرق الأوسط ومعظم أرجاء العالم الاسلامى ، ونشر عدة مقالات عن الاسلام فى العصر الحاضر وتطوره والدور الذى يضطلع به الاسلام والمسلمون فى عالم اليوم ٠ وقد وضع (سميث) عددا من الكتب أشهرها (الاسلام الحديث فى الهند) و (تحليل اجتماعى) و (الاسلام فى العالم الحديث) و (الاسلام فى التاريخ الحديث) وقد قامت جامعة برنستون بنشرها ٠ وقد زار (سميث) مصر سنة ١٩٥٨ وألقى محاضرتين فى القاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة (٢) ٠

تحدث المستشرق الألمانى (بارت) عن آماله بالنسبة لحركة الاستشراق عامة ، وفى ألمانيا خاصة ، فقال : وهناك آمال تختلج فى أنفسنا فى أمر توسيع وتطوير الاستشراق الألمانى ، فنحن ، على قدر ما أتبين ، مفتقرون فى الوقت الحاضر الى عالم متخصص فى عملية الاصلاح والتجديد التى تتناول الشريعة الاسلامية ، وخاصة ما يصل منها بالأحوال الشخصية ٠ واذا كان لدينا الآن تمثيل قوى حاليا للبحوث الخاصة باللهجات فى الدراسات العربية ، فان

---

(١) محمد خلف الله أحمد ، الاسلام والحضارة ص ٢٠ ـ ٢١ ٠

(٢) انظر مقدمة كتاب (الاسلام فى التاريخ الحديث) لسميث ص ٣ ـ ٤ ٠

عدد الأبحاث التى تتناول تاريخ الأدب ما يزال قليلا نسبيا ، وما يزال البحث فى الأدب العربى الحديث فى بدايته لم يتجاوزها الا قليلا . وهناك طائفة كبيرة من الموضوعات والمشكلات الهامة تتطلب المزيد من الجهد ، ولدينا جيل جديد مؤهل نابه مستعد للعمل ، والدلائل كلها توحى بأن فروع علوم العربية والعلوم الاسلامية ستستمر فى الازدهار والنماء بالجامعات الألمانية فى المستقبل أيضا .

تصنيف المستشرقين

حركة الاستشراق حركة واسعة النطاق ، متشعبة الفروع ، تختلف فى بدايتها وفى المراحل التى قطعتها ، وفى اتجاهاتها ودوافعها ، وفى النتائج التى وصلت اليها · وقد ساهم فى حركة الاستشراق آلاف من المستشرقين ، عبر العصور التاريخية المختلفة ، وكانت جهودهم متفاوتة ، مختلفة فى صورها وبواعثها ·

وليس المستشرقون جميعا صنفا واحدا ، فهناك من قدم انتاجا علميا ضخما أفاد به البشرية عامة والشرق خاصة ، ومنهم من كان انتاجه وجهده متواضعا ، ومنهم من عاش على هامش الاستشراق · ومهما كانت جهود المستشرق ، فقد ساهم بها فى وضع لبنة أو لبنات فى بناء الاستشراق ، ولكن يهمنا فى تقييم هذه الجهود ما اتصفت به من انصاف أو اجحاف ، فقد أنصف كثير من المستشرقين الاسلام والرسول والتاريخ الاسلامى والحضارة العربية ، ولكن بعض

المستشرقين دفعهم تعصبهم أو حقدهم أو جهلهم أو تقصيرهم الى الاساءة والاجحاف والجحود ٠

ولذا يمكننا تصنيف المستشرقين من حيث الانصاف والاجحاف الى ثلاث فئات متميزة ٠ فهناك فئة قدمت للعالم أبحاثا قيمة عميقة ، وفى نفس الوقت كانت عادلة فى حكمها ، متزنة فى دراستها ، منصفة فى نظرتها ، فأشادت بالاسلام وبالرسول وبحضارتنا العربية الاسلامية ٠ وهناك فئة ثانية تعمدت الاساءة حينما أمسكت بالقلم لدراسة تاريخنا وحضارتنا ، وان كانت فى نفس الوقت قد توصلت الى أبحاث ذات قيمة علمية ٠ أما الفئة الثالثة ، فقد وقعت فى المحظور ، ولم تنصف الاسلام وتاريخه وحضارته ، ولكن بدون عمد أو قصد ، اما لجهل بالعقيدة ونظمها ، أو قصور فى البحث ، أو لعدم التمكن من اللغة العربية ، ولذا فحكمنا على هذه الفئة الثالثة يختلف عن حكمنا على الفئة الثانية التى أساءت عن عمد وتربص واصرار ٠ ولنفصل الحديث الآن عن هذه الفئات الثلاث ٠

أولا : المستشرقون المنصفون :

لا شك أن هناك فئة من المستشرقين الغربيين اتخذوا الاستشراق علما قائما بذاته ، ووهبوا له حياتهم ، وضحوا من أجله بالكثير من جهدهم ووقتهم ومالهم ٠ بل ربما عاد عليهم الاستشراق بالأضرار أحيانا ٠ فميخائيل سكوت نالته ريبة من ترجمته ابن رشد ، وروجر بيكون ألقى به فى السجن لاعتماده على الفلسفة الشرقية ، وبوستل ، وكان أعلم مستشرق فى عصره يجله الملوك والأمراء ، اعتقل فى سبيل الاستشراق ٠ وسيمون أوكلى انقطع لتدريس اللغة العربية فى كمبريدج انقطاعا عاد عليه وعلى أسرته بالافلاس والسجن ، حيث أتم الجزء الثانى من كتابه تاريخ المسلمين ٠ ولى سترانج كف بصره فيه ولم ينقطع عنه ٠ والأمير كايتانى أنفق

ثروته على الاستشراق ـ عشرة آلاف جنيه ذهبا فى السنة ـ وأفلس من بعده . وفرينل لقى مصرعه فى التنقيب عن الآثار فيما بين النهرين ، ورتسن ذهب ضحية الاستشراق بعد أن كشف عن آثار اليمن . كما لقى (بالمر) مصرعه خلال عودته من سيناء ، وقد قام بنشر ديوان البهاء زهيرمتنا ، وترجم شعره الى الانجليزية (١) .

ولا يعيش المستشرقون الأوروبيون فى الفراغ ، شأنهم فى ذلك شأن ممثلى الفروع الأخرى من الدراسات غير الشرقية ، بل يضعون أنفسهم فى خدمة المجتمع الذى ينتمون اليه ، والذى يمولهم ويشجعهم . ويتضح هذا فى أن تخصص الاستشراق له فى كل جامعة أوروبية على الأقل كرسى يمثله،ومجموعة من وظائف المعيدين تتيح المجال لتنشئة جيل المستقبل من المستشرقين . وهناك عون آخر جوهرى يتلقـاه الاستشراق ويتمثل فى المكتبات المتخصصة اللازمة لكل عمل علمى . فكل قسم للدراســات الشرقية أو معهد للدراسات الشرقية بأى جامعة من الجامعات الأوروبية يمتلك مكتبة كبيرة أو صغيرة خاصة بالقسم أو المعهد تكتمل وتتسع على الدوام . علاوة على الأقسام الخاصـــة بالاستشراق فى مكتبـات الجامعـات نفسها (٢) .

وكثير من المستشرقين يهوون الاستشراق ثم يتخذونه مهنة كأى من المهن الحرة ، فى معاهده ومكتباته ومتاحفه ومطابعه ودور نشره ومجلاته ، الا ذوى اليسار منهم ، أو الذين ضاقت مؤسساته عنهم فطلبوا الرزق من سبل غيرها ، دون أن ينصرف أحدهم عن التحقيق والترجمة والتصنيف فى تراثنا العربى والاسلامى الذى

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون ج ٣ ص ١١٤٩ .

(٢) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ١٠٣ .

آمسى من تاريخ العلوم والآداب والفنون ، لا مطمع لدولهم فيه أو اقبال لمواطنيهم عليه أو مسايرة لعصره له ، فلا ثراء للمهنة ولا أمل لصاحبها فى ثراء ٠

أشاد الأستاذ نجيب العقيقى فى كتابه القيم عن المستشرقين ، بجهودهم فى سبيل الاستشراق ، فقال : لقد شاهدنا وسائل المستشرقين من اقامة معاهد ومكتبات ومتاحف ومطابع ودور نشر ومؤتمرات وبعثات ، وما خصت به كلها من هبات الأفراد ومساعدات المؤسسات وميزانيات الحكومات ٠ ولو ترك المستشرقون المهمات التى يقومون بها لنا ، نحن الشرقيين ، لاستنفدت منا ثروات طائلة ٠

ثم يقارن الأستاذ العقيقى (١) بين جهود المستشرقين ، وجهود الشرقيين العلمية ، فيقول : ولو وازنا بين عناية المستشرقين بتراثنا واكتشافه وصونه وتحقيقه وبين ما قمنا نحن به فى سبيله لرأيناها تكاد تكون متساوية ٠ ولو وازنا كذلك بين ترجمة أحد المستشرقين وآثاره وبين ترجمة أحد أعلامنا وآثاره لوجدناه يضاهيه خلقا علميا وعدد كتب ،وأن لا غنى لنا عن معظمها فى علومنا وآدابنا وفنوننا، ولا سبيل الى جحد فضلها فى فتح عيون الشرقيين والغربيين على ما فى تراثنا من ثراء ، ثم على نهضتنا الحديثة التى كانوا من دعائمها ٠ ولو سعينا الى تحقيق تراثنا وترجمته والتصنيف فيه ونشره بشتى اللغات ، منذ ألف عام ، وفى كل مكان لاحتجنا الى استئجار مواهب مئات العلماء ومناهجهم ومعارفهم ودقتهم وجلدهم طوال حياتهم وفى ذلك من العسير علينا ما فيه ومن النفقات عليه ما يستنفد طائل الثروات ٠

---

(١) المستشرقون جـ ٣ ص ١١٥٠ ٠

وفى الحقيقة لا يمكننا ، نحن الشرقيين ، أن ننكر فضل هؤلاء المستشرقين على الدراسات التاريخية المتصلة بالعرب والاسلام . فلن يفعل ذلك الا غير منصف أو متغافل عن الحق ، فان جهودهم فى هذا السبيل لا يبلغها انكار . وقد يكون لبعضهم مآرب تجافى نزاهة العلم فى الكتابة ، أو تهدف الى أغراض بعيدة عن روح العلم والحق ، ولكن أكثرهم قد بذل من الجهد فى البحث ما لا يسع منصفا انكاره (١) .

فى القرن التاسع عشر ، ظهر عدد كبير من المستشرقين فى مختلف الأقطار الأوروبية . امتاز بعضهم بدقة البحث واتقان الطريقة العلمية وتطبيقها على الدراسات العربية ، وبشمول النظر واتساعه والتطرق الى جوانب متعددة من الحضارة الاسلامية ، وقد قاموا بنشر عدد كبير من كتب التاريخ العربية ، وكتب أخرى تتناول جوانب كثيرة من الحضارة العربية ، نشرا علميا دقيقا كما اهتموا بجمع المواد الأولية ، والوثائق الأصلية لدراسة التاريخ ، من نقود وأوراق بردى . فضلا عن الحفريات التى قاموا بها فى عدد كبير من مراكز الحضارة الاسلامية ، يضاف الى ذلك أن المستشرقين بحكم نشوئهم فى أوروبا حيث تقدمت دراسة التاريخ بأساليبها وآفاقها كانت لهم نظرة أوسع ، فاهتموا بجوانب متعددة من التاريخ الاسلامى ، وأظهر بعضهم عمقا فى التحليل واصابة فى التعليل ، ونضجا فى الأحكام (٢) .

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٦ .

(٢) من مقدمة كتاب علم التاريخ عند المسلمين للمستشرق (فرانزا روزنثال) ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ص هـ (طبعة فرانكلين سنة ١٩٦٣) .

وهناك فئة من المستشرقين المنصفين أقبلت على اعتناق الاسلام عن اقتناع ورضى أمثال : بوركهارت ، وكرنكوف ، وزونستين ، وشنيستر ، وجرمانوس ، وكثير من البولونيين • كما اعتنق أحد عشر ألمانيا الاسلام فى برلين وتسموا باسماء اسلامية • كما أسلم بعض المستشرقين على يد شيخ الجامع الأزهر مثل الدكتورة وارزولايان الألمانية التى تسمت باسم (سامية الأزهرية) ومثل الأمريكية (خديجة دلتك) والأمريكى (ليورس) الذى تسمى باسم الشيخ محمد الازهرى ، ومثل السويسريان : جميلة زوسترنج ، وألبرت كادلر ، ومثل المستشرق البريطانى (جونس) والصحفى البريطانى (لويس هارد) الذى أطلق على نفسه اسم (رمسيس محمد يوسف) ، وغيرهم (١) •

يدافع المستشرق (ستورى) عن المستشرقين ، ويرى عدم انيامهم جميعا ، بدون استثناء بالتعصب والاجحاف ، فيقول « انكم فى البلاد العربية تعتقدون أن جميع المستشرقين متعصبون على الاسلام ، وما أرى هذا الاعتقاد صحيحا دون قيد • نعم ، ان هناك فريقا تعصب بحكم صنعته التى يرتزق منها ، ولكن هذا الفريق معروف عندنا كما هو معروف عندكم ، وليس من الانصاف أن يشمل الحكم جميع الباقين • ان الذين خدموا العربية كثيرون ، وقد حاولوا أن يكونوا منصفين فى أبحاثهم بقدر ما يمكن للانسان أن يكون منصفا » (٢) •

تحدث المستشرق الألمانى المعاصر (بارت) (٣) عن واجب

---

(١) العقيقى : المستشرقون جـ ٣ ص ١١٦٢ •

(٢) الدكتور اسحق موسى الحسينى • علماء المشرقيات فى انجلترا ص ١٤ (القدس ١٩٤٠) •

(٣) الدراسات العربية والألمانية ص ١٠٧ •

المستشرق فى الوقت الحاضر ، فقال : لاشك أن البحث العلمى العميق وحده هو الذى يأخذ بيدنا الى الأمام ، ولا شك أننا لا نستطيع أن نجعله مقبولا من كل انسان سائغا لكل فم . هذا الى أن المستشرق العالم مضطر اليوم أكثر من أى وقت مضى الى الكلف بالثغرات ، أعنى الى الاهتمام بمراكز ثقل معينة والى قبول الاكتفاء من الميادين الأخرى بما يكتفى به غير المتخصص فيها من علم . ولكن لابد أن تكون مراكز الثقل التى يوجه اليها اهتمامه مراكز ثقل حقا وصدقا ، ولاينبغى أن تكون مجرد غرائب وعجائب ، والفيصل فى الأمر هو تقدير ما اذا كانت المعلومات والآراء التى يرجو الحصول عليها نتيجة لبحثه تبشر فى غير كثير من الكتب وفى وقت معلوم معقول بثمرة تفيد جماعة أوسع من اخوانه البشر . وقد يؤتى المتخصص فى العلوم الاسلامية والعربية فرصة تعريف جمهور كبير بميدان نشاطه العلمى مباشرة بمحاضرة عامة يلقيها عليه ، أو كتيب مبسط يصنفه له ، فعليه أن ينتهز ما استطاع الى ذلك سبيلا وألا يتشبث بوجهة نظر (الفن للفن) التى تقادم عهدها .

ومن المستشرقين من قدموا الى الشرق وعاشوا فيه سنوات طويلة ، وأبدوا اعجابهم بحضارة الشرق وأهله . ونذكر من هذه الفئة المستشرق الانجليزى (أدوارد وليم لين) . وقد ولد فى انجلترا سنة ١٨٠١ ، وقدم الى مصر ثلاث مرات ، كانت المرة الأولى سنة ١٨٢٥ ومكث فى مصر فترة عاد بعدها الى انجلترا . وما لبث أن دفعه الحنين الى القدوم مرة ثانية سنة ١٨٣٣ حيث مكث بمصر عامين الى سنة ١٨٣٥ ، ثم عاد الى وطنه . ويبدو أن من يشرب من ماء النيل ما يلبث أن يعود اليه . فقد قدم (لين)

الى مصر سنة ١٨٤٢ حيث أقام سبع سنوات الى سنة ١٨٤٩ عاد بعدها الى انجلترا حيث مات سنة ١٨٧٦ ٠

وخلال اقامة (لين)فى مصر ، لم يعش فى برج عاجى ، بل عاش فى وسط الاحيـــاء الشعبية المصرية ، وصـــادق كثيرا من المصريين ، وخبر عن قرب الأخلاق والعادات المصرية ، وأخذ يبحث عن أصولها الشرقية والعربية فى الكتب العربية القديمة ، وألف عدة كتب حوت خلاصة مشاهداته ودراساته ٠

من مؤلفات (لين) كتـــابه (المصريون المحدثون) (١) وقد تحدث فيه عن عادات وأخلاق المصريين ٠ ووضــــع (لين) معجما عربيا انجليزيا ، كما ترجم كتاب ألف ليلة وليلة الى الانجليزية ٠ ومن أبرز مؤلفات (لين) هو كتابه (المجتمع العربى فى العصور الوسطى) (٢) الذى صور فيه جوانب كثيرة من حيـــاة العرب الاجتماعية فى العصور الوسطى ، مع مقارنتها بحيـــاة العرب فى القـــرن الذى عاش فيه (لين) وهو القرن التاســـــع عشر ، وقد استعان (لين) بكثير من الكتب والمصــــادر العربية ، معظمها من المخطوطات ، كما استفاد من ترجمته لقصص ألف ليلة التى تصور حياة العرب فى العصور الوسيطة ، وأصبح كتاب (المجتمع العربى فى العصور الوسطى) يجمع بين الفائدة العلمية ومتعة القراءة ٠

---

(١) Modern Egyptians.

(٢) Arabian Society in the Middle Ages.

وقد قمنا بترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية عن الطبعة الصادرة فى سنة ١٨٨٣ ، ونشرنا الترجمة فى القاهرة سنة ١٩٦٠ (١) ·

وقد ورث (ستانلى لين بول) ابن أخى (ادوارد وليم لين) عن عمه اقباله على الدراسات العربية والاسلامية ، فوضع كثيرا من المؤلفات التاريخية ذات القيمة العلمية الكبرى ، أبرزها (تاريخ مصر فى العصور الوسطى) و (صلاح الدين) و (قصة القاهرة) و (دراسات فى مسجد) وغير ذلك · وهو صاحب الفضل فى نشر كتاب (المجتمع العربى فى العصور الوسطى) فى لندن سنة ١٨٨٣·

ومن أبرز المستشرقين الذين أنصفوا الاسلام وحضارته وتاريخه (جوستاف لوبون) ، وهو مستشرق فرنسى فطن الى فضل العرب على حضارة أوروبا ، فأخرج فى سنة ١٨٨٤ كتاب (حضارة العرب) الذى قام بترجمته الى اللغة العربية الأستاذ عادل زعيتر · ومن كتبه أيضا (الحضارة المصرية) وقد ترجمه الأستاذ صادق رستم ، ومنها كتاب (حضارة العرب فى الأندلس) وقد ترجمه الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى سنة ١٩٢٣ ·

سلك المستشرق (لوبون) فى تأليف كتاب (حضارة العرب) طريقا لم يسبقه اليها أحد ، فجاء جامعا لعناصر هذه الحضارة وتأثيرها فى العالم ، شاملا لجوانبها ، باحثا فى قيام دولة العرب وفى أسباب عظمتهم ، مبتعدا عن أوهام المستشرقين الأوروبيين التقليدية فى العرب والاسلام · وقد استعان لوبون بطريقة التحليل العلمى ، فأوضح فى هذا الكتاب الصلة بين الحاضر والماضى ،

---

(١) انظر المقدمة التى كتبناها لكتاب (المجتمع العربى فى العصور الوسطى) لادوار وليم لين ص ٣ ـ ٤ (سلسلة كتب ثقافية سنة ١٩٦٠) ·

ووصف فيه أصل الجنس العربى والبيئة العربية ، ودرس فيه أخلاق العرب وعاداتهم وطبائعهم ونظمهم ومعتقداتهم وعلومهم وآدابهم وصناعاتهم وتأثيرهم فى المشرق والمغرب (١) .

ومن أبرز المستشرقين الذين خدموا التاريخ الاسلامى ، المستشرق الألمانى (يوليوس فلهوزن ١٨٤٤ ـ ١٩١٨) الذى أخرج للمكتبة الاسلامية العديد من الكتب منها (محمد فى المدينة أو كتاب المغازى للواقدى فى ترجمة ألمانية مخلصة) (١٨٨٢) وكتاب « آثار من الجاهلية العربية » ، ثم كتاب « المدينة قبل الاسلام » ، وكتاب « تنظيم محمد للجماعة فى المدينة » ، و « كتب محمد والسفارات التى وجهت اليه » ، وكتاب « مقدمة للتاريخ الاسلامى الأقدم » ، وكتاب « أحزاب المعارضة الدينية السياسية فى عصور الاسلام القديمة » (سنة ١٩٠١) .

أما أعظم كتب (فلهوزن) فهو ولا شك كتاب « الدولة العربية وسقوطها » الذى نشره سنة ١٩٠٢ ، وقام بترجمته الى اللغة العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ونشره بالقاهرة . وقد تحدث المستشرق الألمانى المعاصر (بارت) (٢) عن هذا الكتاب فقال : هو كتاب عظيم من الناحية العلمية ومن الناحية الفنية ، وعمل يعتمد على تحليل نقدى للمصادر المتمثلة فى الفقرات المطلوبة من تاريخ الطبرى ، وعرض للتاريخ السياسى للاسلام حتى سقوط الأسرة الاموية يأخذ بمجامع قلوب القراء . ولو اقتصر ما وصلنا من

---

(١) انظر مقدمة الأستاذ عادل زعيتر فى ترجمته لكتاب (حضارة العرب) لجوستاف لوبون ص ٦ (الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٦) .

(٢) الدراسات العربية والاسلامية ص ٢٧ ـ ٢٨ .

انشائه على هذا الكتاب وحده ، لحق علينا أن نعتبره من أجله أهم مؤرخ كتب عن تاريخ الاسلام اطلاقا ٠

وكتب (كارل هاينريش بيكر) عن منهج فلهوزن فقال : كان فلهوزن لايتجه الى المادة بالتساؤلات ، ولكنه كان يدع التساؤلات تفرض نفسها من روح المصدر نفسه ٠ وكان يفوق كل من سبقوه فى أنه يرى المصدر كلا متكاملا ، ولذلك وقف حيال المدونات الفنية عظيما رفيعا ٠ وكان فى احساسه أنه ينبغى تجديد كل شيء من أساسه ، لا يجد ضرورة ملحة فى الاحاطة بكل شيء علما وفى مناقشته وتمحيصه ٠

ثانيا : المستشرقون المجحفون :

وهناك فئة أخرى من المستشرقين أساءت الى الدين الاسلامى ، والى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والى الحضارة الاسلامية والعربية ٠ ولكن اساءاتهم تتفاوت أيضا ، فهناك اساءات بالغة لايمكن أن نغفلها أو نغفرها لهم ٠ وهناك اساءات محدودة تدور فى دائرة ضيقة ، وقد نغتفرها اذا علمنا أن هؤلاء المستشرقين قد قدموا انتاجا قيما أفاد المكتبة الاسلامية والعربية ٠ ولكننا لا نبرىء هؤلاء ، وهؤلاء فقد كانت اساءاتهم عن عمد ، وعن سوء قصد ، عبروا بها عن نواياهم الخبيثة ، فى اصرار وساقوا الأدلة المزيفة لاثبات اتهاماتهم ٠

وكان هؤلاء المستشرقين الذين اتصفوا بالاجحاف والجحود ، على جانب كبير من الدهاء والذكاء والمكر ، فقد بذلوا جهودا علمية كبيرة ، وتعمقوا فى الدراسات العربية والاسلامية ، وقدموا انتاجا علميا قيما ، حتى يغروا أهل الشرق على قراءته أو الاستفادة منه ٠ ولم تكن كل كتاباتهم اساءات فهم أذكياء مهرة ، بل انهم

لم يسرفوا فى اجحافهم ، فاقتصرت اساءاتهم على سطور قليلة متناثرة بين صفحات الكتاب العديدة ، فكان كمن يضع (السم فى العسل) ، فأصبحت كتبهم كوبا من العسل الرائق اللون الحلو المذاق ، وفيه قطرات قليلة من السم كافية للقضاء على الحياة ٠ وجاءت هذه السطور فى ثنايا الكتاب ، لايفطن اليها الا متخصص متعمق ، أو قارىء فطن لبيب ، ولكن قد تفوت على القارىء العادى غير المتخصص ، وتؤدى الى بلبلة العقول ، وتشويه الأفكار ٠

وهؤلاء المستشرقين أيضا لا يسوقون الاتهامات جزافا ، فهم يعمدون الى تقليب صفحات المصادر العربية القديمة ليجدوا ثغرات ينفذون منها الى أغراضهم المغرضة ، أو ليتوصلوا الى سطور قليلة يستندون اليها فى اساءاتهم واتهاماتهم ، وقد يجدون مثل هذه السطور فى بعض المصادر الضعيفة أو القليلة الأهمية ، أو فى بعض الروايات المشكوك فى صحتها ، ثم يقول المستشرقون لنا (لقد شهد شاهد من أهلكم) ٠ وقد يلجأ المستشرق الى التأويل ، فيحمل الروايات العربية القديمة ما لا تحتمله ، ويلبس الحق ثوب الباطل ، ويفسرها بما يتفق مع أغراضه وسوء نواياه ٠ ويلجأ المستشرق الى أساليب ملتوية ليقنع القارىء العربى والمسلم برأيه ، وقد يظهر المستشرق فى ثوب الحمل البرىء وقد يسوق عبارات المديح ، وقد يسرف أيضا فى سوقها ، ويدس بينها عبارات قليلة تسىء الى الاسلام وتاريخه ٠

وفى مقدمة هؤلاء المستشرقين الذين نصفهم بالاغراض والاجحاف والجمود الأب لامانس (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) ، رغم أنه قدم الى المكتبة الاسلامية كثيرا من الكتب ذات القيمة العلمية والجهد العميق ٠ ولامنس بلجيكى المولد ، فرنسى الجنسية ، انضم الى

الرهبانية سنة ١٨٧٨ وكان من أوائل خريجي جامعـــه القديس يوسف في بيروت حيث تعلم اللغة العربية ، ثم أصبح أستاذا فيها . وكان كتاب (فرائد اللغة فى الفروق) أول نتاج شهد له فيه العلماء بسعة الاطلاع ودقة الملاحظة وقوة الاجتهاد . ثم تنقل شرقا وغربا (١٨٩١ ـ ١٨٩٧) فدرس اللاهوت فى انجلترا ، وتولى ادارة التبشير في بيروت ، وقام بالتدريس فى لوفان وفينا وروما ، حتى استقر في جامعة القديس يوسف في بيروت ، وعهد اليه بالدراسات الشرقية فعكف عليها ، حتى انه قرأ الأغانى سبع عشرة مرة والقلم بيده ، وصنف فيها مصنفات وفيرة قيمة ، وقد توفى فى بيروت . ويضيق المقام هنا عن تعداد آثاره العلمية ، فقد ذكرها الأســـتاذ نجيب العقيقى فى كتابه (المستشرقون) فى أكثر من ثلاث صفحات كاملة (١) .

هاجم المرحوم الأستاذ كرد على الأب (لامانس) فى كثير من مواضع كتابه (الاسلام والحضارة العربية) (٢) ، فكان مما قال عنه : عاهد لامنس تاريخ الاسلام على مناقضته ، وتمحض للحط من قدر العرب منذ عرفوا بين الأمم . لقد نسى لامانس وبعض جماعة من اليسوعيين المتحتم عليهــم أمانة العلم ، فأخــذوا منذ ألقــوا رحالهــم فى الشرق ، يحرفون آيــات القرآن ، ويحذفون من كتب المسلمين ما لا يروقهم ، يخلطون الآيات بأبيات من الشعر ، ويجعلون الأحاديث النبوية من كلام بعضهم ، حتى انهم لايذكرون الرسول عليه الصلاة والسلام بما ينوه من شــأنه بزعمهم ، وما تحرجوا قط من اقتطاع جملة واحدة من نص طويل، ليبنوا عليه ما يتخيلونه

(١) انظر مؤلفات لامانس فى كتاب (المســـــتشرقون) للأســـتاذ العقيقى ص ١٠٦٩ ـ ١٠٧١ .

(٢) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠ ـ ٣٣ .

نافعا لغرضهم يوردون الخرافات المنقولة بصيغ التضعيف فى كتب الوضـــاعين والقصاصين ، ويدعون أنهـــا منقولة من كتب الثقات الأثبـات ٠

ألفـه (لامانس) تاريخا مختصرا للشام لم يذكر فيه للاسلام ولا للعرب محمدة ، مدة ثلاثة عشر قرنا ونيف ، ومما أورد فيه من الأفكار السخيفة ، أن العربى أثبت خلال الفتوحات أنه جبان ضعيف فى الجندية ، لا يفكر فى غير المغانم ، وأن العرب ظهروا كما كانوا على عهد الرســول وســطا فى القتال ، وعلى استعداد للنهب ، يحجمون أمام الخطر ، وأنهـــم تركوا للسكان الأصليين محاكمهم ولسانهم وأنظمتهم البلدية عجزا منهم لا تسامحا ، وأن العرب لا قابليــة لهم لشىء من أسباب الحضـــارة ، وأن الحروب الصليبية تمثل بسالة الأوروبيين ، وأن صـــلاح الدين أبقى على الصليبيين عجزا وخوفا منهم ، وأن عهده كان قليل البهاء ، ووصفه بالطمع ٠ وادعى (لامانس) أيضـــا أن اليهود عوملوا فى عهد الحروب الصليبية فى الغرب معاملة حســـنة ، الى آخـــر تلك الأكاذيب !!!

وناقش الأستاذ محمد عبد الغنى حسن (١) منهج (لامانس) فقال : كان لامانس أعلم المستشرقين بتاريخ الدولة الأموية ، وكان واسع الاطلاع فى هذا الموضوع ، ولكنه لم يسلم من تعصب صارخ يكاد ينادى على نفسه ، ولم يســلم من غمزات ونزعات تظهـــر فى كتاباته ٠ أما طريقته فى الاستنتاج والاستقراء والتقصى والتحليل والتنظيم فهى طريقة علمية يجب أن يتعلم منها المتصدون منا لكتابة

---

(١) علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٦ ٠

التاريخ ، وان كانت استنتاجاته كثيرا ما تكون مبنية على حوادث فردية لا تصل الى مرتبة تأصيل الأحكام ·

ومن المستشرقين الذين أساءوا الى الفكر العربى (ديلاسى اوليرى) (١) وهو مستشرق أيرلندى الأصل كان يعمل أستاذا فى جامعة (برستول) ، ولغته العلمية هى الانجليزية ، ولكنه كان يحذق الى جانبها اللغتين الفرنسية والألمانية ، وعددا من اللغات الحديثة والقديمة في أوربا والشرق ، كالاغريقية واللاتينية والعربية والسريانية والعبرية والفارسية ·

ومن أشهر كتبه (مختصر تاريخ الخلافة الفاطمية) الذى نشر فى لندن سنة ١٩٢٣ ، و (الجزيرة العربية قبل محمد) ونشر فى لندن سنة ١٩٢٧ ، و (الفكر العربى ومكانه فى التاريخ) ونشر فى لندن سنة ١٩٢٢ ونقله الى العربية الدكتور تمام حسان ، وله أبحاث فى مجلة تاريخ الهند منها (أثر جالينوس فى الفلسفة العربية) سنة ١٩٢٢ ، ومنها (مصادر الثقافة العربية) سنة ١٩٢٥ ·

ويعتبر الدكتور تمام حسان (٢) فى مقدمة ترجمته لكتاب (الفكر العربى ومكانه فى التاريخ) مؤلف الكتاب (ديلاسى أوليرى) من بين غلاة المستشرقين الذين يتلمسون فى ثقافة العرب ما يرجون أن يردوه لأدنى شبه الى ثقافة الاغريق أو الرومان ، فالفقه الاسلامى فى رأيه آخذ عن القانون الرومانى ، لأن العرب

---

(١) انظر مؤلفات دى ساسى فى كتاب (المستشرقون) للأستاذ العقيقى ج ٢ ص ٥٢٣ ·

(٢) انظر مقدمة الكتاب ص ٩ (طبعة وزارة الثقافة بالقاهرة) ·

وجدوا فى الأقاليم الرومانية المفتوحة أوضاعا فقهية أقروها ، والفلسفة الاسلامية فى نظره طور من أطوار الفلسفة الهلينية ، لأن العرب بحثوا المشاكل الفلسفية التى بحثها الفلاسفة الهلينيون، والتصوف الاسلامى ذو روافد من الأفلاطونية الحديثة ، لأنه اتفق معها فى بعض الآراء ، بل ان العقيدة الاسلامية نفسها تشتمل على عناصر هلينية لأنها ارتضت بعض ما ارتضته المسيحية أو الفلسفة الهلينية ·

وينسى (ديلاسى أوليرى) أن فقه الاسلام مصدره الكتاب والسنة ، وأن فلسفة الاسلام وان بدأت فى ظل مؤثرات هلينية قد اشتقت لنفسها طريقا اسلاميا خالصا ، وأنها ارتبطت بالبيئة الاسلامية برباط محكم ، وأن التصوف الاسلامى وان اشتمل على أفكار شرقية وغربية وقد استمد وحيه من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم · نسى المؤلف ذلك ، أو لعله تناساه ، ليعلى من شأن الاغريق الأوروبيين ، أبناء قارته وبنى عمومته وأسلافه الفكريين ، وليحط من شأن العرب ، اما لدوافع عنصرية ، أو دينية ، أو هما معا !!

ان الحق يقتضينا أن نفرق بين المستشرقين المبشرين ، والمستشرقين الباحثين · ولن تجد الجحود للاسلام والتحامل عليه الا بين الفريق الأول ، فمنهم تتوقع كل حق مقصود ، وكل نية خبيثة ، وقد كان أجمل الظن بهؤلاء أن تحميهم صفتهم الدينية من الوقوع فيما لا يرضاه دين ، وما لا يقبله عقل سليم ، ولكن لعلهم من هذه الناحية صبوا على الاسلام وتاريخه وحضارته غضبهم ورموه بما هو منه براء ·

والحق أننا لن نجرد المستشرق أو الباحث الأجنبى فى الدراسات الاسلامية وما اليها من التأثر بمواريثه الدينية الخاصة ،

وبمزاجه الشخصى ، وبالظروف والملابسات التى تحيط به حين يكتب عن الاسلام أو نبى الاسلام أو قرآن المسلمين . ومن زعم غير ذلك فقد اجترأ على تجريد النفس البشرية من بعض خصائصها أو تكليفها بما ليس فى طبعها .

على أن المبالغة فى التأثر بالمؤثرات الخاصة فى مجال البحث العلمى ، المفروض فيه أن يكون نزيها منصفا ، هى ما يعاب على الباحثين الذين يخلطون بين أصول العلم ونزاهة البحث ، والذين لا يستطيعون ـ وهم أسرى للتأثر والانفعال والعاطفة ـ أن يفرقوا بين الحقيقة التى يجب أن تقال ، وبين النزوة التى يجب أن تكتب (١) .

حاول المستشرق الأمريكى (ولفرد كانتويل سميث) (٢) أن يعلل أخطاء المستشرقين الذين تناولوا التاريخ الاسلامى الحديث، ولكنه لم يوفق ، حين قال : ان كل الكتب والأحاديث الاسلامية التى تتصل بالاسلام تتخذ موقف الدفاع وتهدف الى حماية دمار الاسلام أكثر مما ترمى الى بيانه والكشف عنه . وهذه الحقيقة ، فى تشعبها البعيد ، هى علة سوء التفاهم بين المسلمين والغربيين ، والسبب فى أن غير المسلمين يسيئون فهم الأفكار الاسلامية الحديثة ، والواقع أن كلا من الجانبين لم يدرك الموقف ادراكا تاما ، فالمسلمون يأخذون قضايا الدين بتسليم ، ولا يتقبلون سواها . على حين نجد الغربيين يؤمنون بالتفسير العقلى . وهذه الطريقة

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والجحود ص ٨ (القاهرة ١٩٦٠) .

(٢) الاسلام فى التاريخ الحديث ص ٣٣ ـ ٣٤ .

التى يتبعها المسلمون فى تقبل دينهم تفسد تقدير الغربيين للاسلام الحديث وتقف حائلا أمام المسلم فى صراعه ضد الصعوبات الدينية الحديثة التى يواجهها ٠

ثالثا : مستشرقون مجحفون بدون قصد :

وهناك فئة ثالثة من المستشرقين وقعوا فى الخطأ والزلل ، وأساءوا الى تاريخنا الاسلامى وحضارتنا العربيــة ، ولكن بدون قصد أو عمد ٠ وان كنا نحاسبهم على أخطائهم واساءاتهم ، الا أن حكمنا عليهم ـ بدون شك ـ أخف وطأة من حكمنا على تلك الفئة السابق الحديث عنهـا من المستشرقين الذين تعمدوا الاســاءة والاجحاف ، وكانوا مغرضين فى كل ماكتبوه ٠ واننـا فى حكمنا هذا ، نكون كالقضاة الذين يفرقون فى أحكامهم بين القتل الخطأ ، والقتل العمد مع التربص وسبق الاصرار ٠

ويشرح المستشرق الألمانى (بارت) (١) منهج المستشرقين ، وأنهم يخضعون الدراسات الاســلامية للمعيــار النقدى ، وأنهمم يريدون الوصول الى الحقيقة ، فيقول : نحن ، معشر المستشرقين ، عندما نقوم اليوم بدراسات فى الدراسات العربيــة والاســلامية لا نقوم بها قط لكى نبرهن على ضعة العالم العربى الاســلامى ، بل على العكس ، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذى يمثله الاسلام ومظاهره المختلفة والذى عبر عنه الأدب العــربى كتابة ٠ ونحن بطبيعة الحال ، لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيها النظر ، بل نقيم وزنا فحسب لما يثبت أمام النقد

---

(١) الدراسات العربية والالمانية ص ١٠ ٠

التاريخي · ونحن في هذا نطبق على الاسلام وتاريخه ، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها ، المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن · واذا كانت امكانيات معرفتنا محدودة ـ وهل يمكن أن تكون الا كذلك ؟ ـ فاننا نؤكد بضمير مطمئن أننا في دراستنا لا نسعى الى نوايا جانبية غير صافية ، بل نسعى الى البحث عن الحقيقة الخالصة ·

وهكذا اعترف المستشرق (بارت) بأن امكانيات معرفة المستشرقين محدودة ، مما قد يسبب وقوع بعض المستشرقين في مواطن الزلل · والمستشرق (ستورى) (١) يطلب من الشرقيين بأن يتسامحوا مع المستشرقين الذين وقعوا في الخطأ بدون قصد ، فيقول : ان الذين خدموا العربية كثيرون ، وقد حاولوا أن يكونوا منصفين في أبحاثهم بقدر ما يمكن للانسان أن يكون منصفا ، وان أخطأ باحث من غير قصد فليس السبيل الى تقويمه أن يجرح ويقذف ، ثم انا نبحث لغات بعيدة عنا ، ونخوض في موضوعات في غاية الدقة ، مستعينين بالأساليب الحديثة ، وكما أنه يشفع للطبيب الجراح ـ ان أخفق في عملية جراحية ـ حسن نيته ، كذلك يجب أن يشفع للباحث طيب طويته وحرصه على الوصول الى النتائج دون تعصب ·

من عوامل خطأ المستشرقين ، بدون قصد ، عدم توصلهم الى أسرار اللغة العربية التي هي ليست لغة المستشرقين الأصلية ، فهم لم يستطيعوا أن ينفذوا الى كنهها نفوذ العرب اليها · ولذا استعصى على بعض المستشرقين فهم النصوص العربية والوصول

---

(١) الدكتور اسحق موسى الحسيني : علماء الشرقيات في انجلترا ص ١٤ ·

الى أعماقها . واذا كنا نعزو تخبط بعض المستشرقين فى الدراسات الأدبية العربية الى عدم فهمهم التام لأسرار البيـان العربى ، فان تخبط بعضهم فى الدراسات الاسلامية التى يقومون بها ويتصدون لها قد يعزى الى جهلهم بحقيقة الاسلام وفهمه على حقيقته والنفوذ الى أسراره ، والاحاطة بروحه التى لا يدركها الا العليم .

ومن تمـام أسـباب العلم واستكماله أن يبحث المستشرق الموضوع من جميع وجوهه وأن يدرسه دراسـة اتصال ، وحبذا لو درس البيئة ، ورآها رأى العين ، فان البيئة عامل مهم لايجوز اغفاله مثلا فى الحديث عن ظهور الاسـلام وانتشـاره . كتب بعض المستشرقين عن الاسـلام ، ولم يعرفوه الا من خلال الكتب والمصنفات ، وقد يكون بعض هذه الكتب مما لم يرتفع الى طبقـه الأصول الأولى للاسلام ، أو يكون من تلك المصنفات المحشـوة بالضلالات والسخافات التى تلصق بالاسلام زورا وسفها ، أو قد تكون تلك المؤلفات من نتاج العقول الاسـلامية التى تخلفت عن عصور الانحطاط (١) .

وسأذكر قصة طريفة عن مستشرق وقع فى خطأ بدون قصد ، وقد كنت شاهدا لهذه القصة . فقد كنت أسـتاذا زائرا فى معهد الدراسات الاسلامية بجامعة ماكجيل بمدينة مونتريال بكنـدا فى العـام الجامعى ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ . وحضرت محاضرة عامة ألقاها أسـتاذ أمريكى ، يعتبر فى مقـدمة المستشرقين المعاصرين ، وله مؤلفات قيمة فى التاريخ الاسلامى ، وألقى عدة محاضرات فى الجامعة

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والجحود ص ١٠ .

الأمريكية بالقاهرة · وأصفه بالانصاف والعمق فى الدراسة ، وأنفى عنه أى اتهام قد يوجه اليه ·

وقف المستشرق المذكور فى أوائل شهر ديسمبر ١٩٦٣ يلقى محاضرة عن ظهور نظام الخلافة ، ويبدو أنه كان لا يزال متأثرا بمصرع الرئيس الأمريكى السابق (جون كيندى) ، فقال المستشرق : « وبعد وفاة الرسول ، تولى أبو بكر الحكم ، وهذا يشبه ما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية ، حينما تولى لندون جونسون بعد مصرع جون كيندى » · وجرت العادة فى مثل هذه المحاضرات العامة اتاحة الفرصة لكل من يريد التعليق والتعقيب · ولذا انبريت للأستاذ المستشرق لأفند مقالته ، ولأهاجم هذا التشبيه الذى ذهب اليه · فقلت له ، انه لا يصح مطلقا وضع نبى من الأنبياء موضع مقارنة أو تشبيه بأى انسان آخر ، كما لايجوز تشبيه أبى بكر الصحابى الجليل وأول الخلفاء برئيس أمريكى ، مهما بلغ نفوذه أو سلطانه · كما أن طريقة تولية أبى بكر رئاسة الدولة الاسلامية بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام تخالف تماما نظام الحكم الرئاسى الموجود فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد تولى أبو بكر الخلافة بعد بيعة خاصة فى سقيفة بنى ساعدة ، ثم بيعة عامة فى المسجد النبوى فى اليوم التالى ، وهاتان البيعتان تحققان ما أمر الاسلام به من شورى وديمقراطية · كما أن أبا بكر لم يكن نائبا عن الرسول فى رئاسة الدولة الاسلامية فى حياته الكريمة · هذا بينما كان (جونسون) نائبا لرئيس الجمهورية (كيندى) ولذا تولى الحكم بعد مصرعه · وقد أفضت فى عرض وجهة نظرى العربية الاسلامية ، المستمدة من واقع التاريخ والحقائق ، وقد أبدى الأستاذ الأمريكى المستشرق اعتذاره ، وأوضح حسن نواياه ، وذكر أنه انما كان يريد فقط تقريب الصورة

لعقول الأمريكيين المستمعين لمحاضراته ، ومعظمهم من غير المتخصصين فى التاريخ الاسلامى ، وأن المستشرق لايزال متأثرا بحادث مصرع (كيندي) الذي هز مشاعر الأمريكيين وأثر في نفوسهم ٠

ومن المستشرقين البارزين الذين لم يسلموا من الوقوع فى الخطأ (رينولد الين نيكولسن ١٨٦٨ ـ ١٩٤٥) ، وقد تخرج من كلية ترينتى ـ كمبريدج ، وقد كان جده من كبار علماء العربية مما أثر فى ميله الى الدراسات الشرقية ، وتعلم العربية على روبرتسون سميث ، والفارسية عن ادوارد براون ، وقد خلف براون فى منصبه بعد وفاته ٠ وقدم (نيكولسن) الى المكتبة العربية والاسلامية كثيرا من الدراسات القيمة التى تتصف بالجدية والابتكار والعمق والانصاف ٠ أشهرها التاريخ الأدبى للعرب ، وهو تصنيف للأدب العربى فى ضوء التاريخ السياسى والعمرانى للعرب والمسلمين ، تشبها بتاريخ الأدب الفارسى لبراون ، ويضيق المقام هنا عن تعداد أبحاث نيكولسن (١) ٠

ومن الكتب التى وقع فيها (نيكولسن) فى بعض الأخطاء ، كتابه (الصوفية فى الاسلام) الذى استغرق فى تأليفه عشرين عاما ٠ وقد قام الدكتور أحمد الشرباصي بالرد على آراء المستشرق فى كتاب بعنوان (التصوف عند المستشرقين) وقد عاب على المستشرق ما ذهب اليه من أن الصوفية الاسلامية قد تكونت من تأثيرات خارجية غير اسلامية هى المسيحية والأفلاطونية والبوذية ،

---

(١) انظر قائمة كاملة لأبحاث نيكلسون فى كتاب (المستشرقون) للعقيقى ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧ ٠

كما عاب عليه اساءته الى القرآن الكريم ، أو وصفه العبادات الاسلامية بأنها « رسوم ظاهرة » موهما بذلك أنها لا تؤثر فى النفس ، أو عندما يذهب الى أنه « ليس لدى المسلم فكرة ما عن القانون الطبيعى » .

واننا وان كنا نوافق الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصى على جميع آرائه ، وعلى تفنيده لأقاويل (نيكولسن) ، فاننا أيضا نشعر بالحيرة ونتساءل : كيف وقع هذا المستشرق فى هذه الأخطاء ؟ رغم جهوده الكثيرة وكتبه العديدة وأبحاثه القيمة ؟!! وخاصة أن الدكتور الشرباصى نفسه يقول عن المستشرق : « وقد يكون الدكتور نيكلسون أقل من غيره من المستشرقين فى باب الخطأ أو الكيد للاسلام .. وقد عنى نيكلسون بالدراسات الصوفية عناية ملحوظة ، فألف فيها ، وأخرج كثيرا من كتب التصوف المشهورة » (١) .

ومن المستشرقين البارزين الذين يثيرون حيرتنا أيضا ، بل أثاروا حيرة المستشرقين أنفسهم ، المستشرق الألمانى (شبرنجر ١٨١٣ ـ ١٨٩٣) الذى وضع كتابا ضخما بعنوان (حياة محمد وتعاليمه حسب مصادر لم تستخدم غالبيتها الى الآن) ، ظهر فى ثلاث مجلدات . وقد أعلن شبرنجر أنه كرس نفسه للدراسات الآسيوية ، وقد زار الشرق ، وأقام ١٢ عاما فى الهند ، واطلع على جميع جوانب التاريخ الاسلامى . وقد قام باعداد كتاب (فهرست كتب الشيعة) للطوسى للطبع ، كما قام بطبع كتاب (الاتقان) للسيوطى فى سلسلة المكتبة الهندية ، وعثر على الجزء الأول من

---

(١) الدكتور أحمد الشرباصى : التصوف عند المستشرقين ص ١٦ .

كتاب الطبقات لابن سعد فى مكتبة خاصـــة فى (كاونبور) وعلى أجزاء أخرى منه فى دمشق ، وجلب معه من الشرق أكثر من ألفى مجلد منهـــا ١١٠٠ مخطوط عربى انتقلت ملكيتها فيما بعد الى مكتبة برلين :

وقد عـدد المستشرق الألمانى المعاصر (بارت) جهـــود (شبرنجر) فى مجالات الدراسات الاسلامية ، ثم عبر عن حيرته وتعجبه من كتابه عن محمد ، فقـــال : « وكان المتوقع أن يتمكن شبرنجر بما بين يديه من مصادر كثيرة ، من كتابة سيرة لمحمد لاتدع مجالا للنقد أو الأخذ ، ولكن السيرة التى ألفها خيبت الظنون فى أكثر من ناحية ولم ترع شروط ومتطلبات التقرير العلمى • فقد ضلله اتجاهه الى النظر الى الاســـلام باعتباره وليد روح عصره وحمله على التقليل من شأن شخصية النبى ومن أهمية جهـــوده التاريخية » •

هذه هى شـــــهادة مستشرق مســيحى ، وهو ألمانى مثل (شبرنجر) ، فماذا نقول نحن الشرقيون المسلمون ؟! وبطبيعة الحال ، فان (شبرنجر) لم يكن حسن النية ، ولم يكن بعيدا عن التعصب ، حينما ألف كتابه عن الرسول عليه الصلاة والسلام • وقد أشرنا اليه ، لنوضح مثالين مختلفين ، مثالا للاساءة بدون قصد، ومثالا آخر للاساءة بعمد وقصد وسبق اصرار •

هذا نقد مستشرق ، لمستشرق آخر • واليكم نقد آخر وجهه المستشرق (بودلى) الى قرنائه المستشرقين • فقــد انتقد كل من تعرض من المستشرقين لكتابة سيرة محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال ان جميع السير التى دونها مستشرقون ناقصة ، وقد فشلت فى عرض موضوعهـــا من كل الزوايـــا ، وقد اكتفى المستشرقون

بصورة محدودة منعزلة ، فمن النادر أن نجد الظلال والبيئة • ولذا سافر (بودلى) الى بلاد العرب حتى ينجح فى كتابة سيرة للنبى الكريم • وقد انتقد (بودلى) ذلك الكاتب الأجنبى الذى ألف كتابا عن محمد ، فظهر من خلال ما كتبه أنه لم يغادر « نيوانجلاند » حيث كان يعمل راعى كنيسة !! (١) •

التمس بعض علمائنا العذر لاخطاء المستشرقين فى التحقيق فقالوا : ان الاسفار الأدبية الأولى كانت تنسخ نسخا وكان سوق النساخ رائجا ، دفع بعضهم الى الصنعة التجارية فيه ، فوقع تحريف كثير ، وتشوهت الكتابات ، فما يستطيع المحقق اليوم بعد طول عهد الكتابة أن يتميزها ، فاستعصت على بعض المستشرقين كلمات ، كما وقع فى ذيل المعاجم العربية لدوزى • وكذلك قابلتهم تلك الصعوبة فى الشرح على الطريقة الكلامية ، دون معرفة القصد الذوقى منها ، كشرح كاترمير الأحداث بالغوغاء • كما واجهتهم تلك الصعوبات أيضا فى المفردات العربية المكتوبة بالحروف اللاتينية التى كثيرا ما لا تفى بحاجة اللفظة العربية ، وفى قواعد اللغة العربية وأصولها وترجمة بعض النصوص (٢) •

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والجحود ص ١٠ ـ ١١ •

(٢) العقيقى : المستشرقون جـ ٣ ص ١١٥٢ •

تقويم جهود المستشرقين فى التاريخ الاسلامى

صفات ومزايا المستشرقين :

الحق أن مناهج المستشرقين فى البحث هى مناهج تتميز بالجد ، وبالدأب على البحث ، والتعمق ، والتحليل ؛ والاستقراء ؛ والاستنتاج والوصول الى الحكم العام بعد عرض طائفة من الفرديات التى تتشابه فى مجموعة من الخصائص تجعلها صالحة لأن تندرج تحت حكم واحد . وبقدر ما فى طرائق البحث والاستنتاج من سلامة وحياد تكون الأحكام العامة دائما سليمة محايدة بعيدة عن الاجحاف والأغراض .

ولا شك أيضا أننا مدينون لكثير من المستشرقين بطائفة كثيرة من المصنفات التى أسهمت بنصيب كبير فى ثروة الفكر ، وخاصة بعد ترجمتها الى العربية . فقد أوضحت الكثير من الحقائق العلمية ، وأضافت الى مكتبتنا العربية العديد من الأبحاث . وقد

يكون للعقلية الغربية المنظمة القادرة على البحث والتحليل والتتبع أثر في ذلك الطابع الذى تتسم به دراساتهم وأبحاثهم (١) ·

ومن محاسن المستشرقين ادخال المنهج العلمى على دراساتنا الاسلامية والعربيـــة · وهذا المنهج قائم على الاحــاطة والموازنة والترتيب والاستنباط لبلوغ الحقيقة ، وقد طبقه المستشرقون على علومنا وآدابنا وفنوننا تطبيقا صحيحا · وقد ساعدهم على تطبيق منهجهم العلمى مميزات خاصة ، منها اتقانهم بأمهات اللغات سامية كانت أو آرية ، وتخصص الواحد منهم بلغة أو دين أو علم أو أدب أو فن أو سلالة أو عصر أو أديب · وبما أنهـم دخلاء على التراث الشرقى فقد اصطنعوا التمحيص والدقة فيه ، لعلمهم بأن الأخطاء الفاحشة والتحريف والتضليل تنال من أقدارهم فى أعين الشرقيين وتصرف الأنظـــار عنهم · وكان المستشرقون من دول متعددة ، يقرأون ما يكتب فى موضوعهم بسائر اللغات ، ويصـحح بعضهم للبعض الآخر · ومن مميزات المستشرقين أيضا جلدهم على العمل ، وربما ينقضى عمر أحدهم فى تحقيق مخطوط أو تصنيف كتـاب أو موسوعة دون كلل أو ملل (٢) ·

يشيد المرحوم الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن بجهود المستشرقين ، فيقول : « الملاحظ بوجه عام أن ما كتبه المستشرقون من الدراسات فى بعض عصور التاريخ الاسلامى أو مسائله الجزئية أعمق من كتبهم الشاملة ، واذا كان للمراجع العربيـة والفارسـية القديمة المقام الأول والأساسى فى دراســة التاريخ الاسلامى ، فمن

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والجحود ص ٦ ·

(٢) العقيقى : المستشرقون ج ٣ ص ١١٤٣ ـ ١١٤٤ ·

الانصاف أن نعترف بأننا لم نحسن الافادة من تلك المراجع الأصيلة، حتى اتصلنا بالغرب ، واستطاع الرعيل الأول من المؤرخين المسلمين المحدثين أن يأخذوا عن المستشرقين كثيرا من اســاليب البحث العلمى الدقيق • وحسبنا مثلا أن المستشرقين هم الذين كشفوا لنا عظمة ابن خلدون وما فى مقدمته من نظريات اجتماعية سبق بها العلماء الذين ينسب اليهم الغربيون وضع الأسس الأولى فى عـلم الاجتماع •

« ولا ريب فى أن بعض المستشرقين لا تلين لهم قنـاة اللغة العربية بحيث يصبحون فى مأمن من ســوء الفهم ومجانبة التفسير الصحيح ، وما من شك فى أن بعض المستشرقين يعميهم التعصب الدينى أو القومى عن الحقائق ، أو يدفعهـم الى قلبها ، ولكن هذا لا يقلل من فضل المستشرقين فى العناية بتاريخ حضارتنا ، وفى دفعنا الى العناية بها ، فى أسلوب علمى سليم ، نستطيع بواسطته أن نكمل ما فى دراستهم من نقص ، أو نقوم ما فيها من عيوب »•

الاهتمام بالتراث الاسلامى العربى :

لقد أعان رجـال الاستشراق على أصـالة بحوثهم أنهم وقع لهم من كنوز التراث الشرقى والعربى وذخائر أفكاره ما لم يقع لأهله وأصحابه • فقد جاء حين على المخطوطات العربية كانت مجهولة القدر عند أصحابها الذين هم أولى الناس بها ، وأحقهم بصيانتها وحفظها ، فانتقلت الى خزائن الغربيين ـ فيما انتقل اليهم من التراث الشرقى والعربى ـ ومن هنا أكبوا عليها ، وعكفوا على دراستها ، وأطالوا البحث فيها ، حتى استقام لهم من ذلك دراســات سبقونا اليها ، وكنا نحن أحق بهذا السبق (١) •

---

(١) عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والجحود ص ٧ •

والتراث العربى جزء من التراث الانسانى ، ولعله أكثر أجزائه اتساعا وتعقيدا وغموضـــا ، فى أصوله وتأثره وتفاعله وتطوره وأثره ، ذلك لما رافقه من عصبيات قبائل وأنساب وقرشيين وأنصار ومهاجـرين ، ومن منازعات الخلافة بين الأمويين والهاشــميين ، وانقسام المسلمين الى ســنيين وشــيعة وخوارج ، من زندقات شــعوبية ٠ كل ذلك ســاعد على طمس بعض معالم التراث العربى (١) ٠

ولذا فقد استفاد التراث العربى حين طبق المستشرقون منهجهم العلمى على هذا التراث ، فقد خلت نفوســهم وقلوبهم وعقولهم من آثــار تلك العصبيات والمنازعات والأهواء ، ولذا كانت آراؤهم علمية خالصـــة ، وان لم ترض بعض المسلمين الذين لا يزالون متأثرين بتلك العصبيات القديمة ٠

ورغم أن الدكتور تمام حســان قد انتقد بعض آراء وأفكار (ديلاسى أوليرى) فى مقدمتــه لترجمتــه لكتاب (الفكر العربى ومكانه فى التاريخ) ، كما رأينا فى الفصل السابق من كتابنا هذا ، فان الدكتور تمام فى حكمه على الفرق الاسلامية كان بعيــدا عن التعصب لهذه الفرق أو لبعضهــا ، فيقول (٢) : ولكون مؤلف الكتاب مستشرقا ينتمى الى بيئة ، لا هى بالاسلامية ولا العربية ، يثير فى نفوسنا دواعى الانتباه حين نقرأ له رأيه فى الفرق الاسلامية المختلفة ٠ بل انه يثير انتباهنا كذلك حين يتكلم فى أعلام الفكر العربى بروح ليس لها موقف تقليدى من هؤلاء الأعلام ، ولعل ذلك

(١) العقيقى : المستشرقون جـ ٣ ص ١١٤٥ ٠

(٢) انظر مقدمة كتاب (الفكر العربى) ص ١٤ ٠

من حسنات هذا الكتاب أكثر مما هو من مساوئه ، لأنه يعرض هذه الفرق وهؤلاء الأعلام من زاوية لا تتفق كثيرا لاتباع هذه الفرق والمعجبين بهؤلاء الاعلام،ولأن المسلم هنا ينظر بعين العطف الى أبناء مذهبه فى الدين ، وبعين الاشفاق الى أبناء المذاهب الأخرى ، ومن ثم يصعب عليه عند ارادة البحث العلمى الذى لا يعرف العطف والاشفاق ، أن يتخذ لنفسه موقفا خلوا من أى منهما ٠

المطابع والمجلات والمؤتمرات :

كان المستشرقون أول من أنشأ المطابع الشرقية فى بلدان الغرب ، والشرقين الأوسط والأقصى ، وشمالى أفريقية ٠ وقد استوعبت مطبعة ليدن وحدها حروف عشرين لغة شرقية ٠ ثم تعددت مطابع الجامعات والمكتبات والجمعيات والمراكز الثقافية والعلمية والأثرية ، ونشرت الأمهات من علومنا وآدابنا وفنوننا ، محققة مترجمة مصنفا فيها ، على أروع ما يكون النشر دقة علمية واتقان طباعة ورونق حروف ٠ وقد ساعد على نشر كتبهم تحمل جمعياتهم ومعاهدهم ومجلاتهم وريع مؤسساتهم نفقات طبعها (١) ٠

لقد كانت جهود المستشرقين المؤرخين فى نقل كتب التاريخ العربى الاسلامى ، أو تحقيقها ونشرها نشرا علميا مع الفهارس الدقيقة ، مما لا ينكره الا جاحد ٠ وهذه الكتب التى حققوها ونشروها تدل على جهد عظيم ، وصبر على العمل ، ودقة فى الفهرسة ، اللهم الا بعض مآخذ تعود الى عدم اتقانهم لقراءة النص ، تبعا لعدم اتقانهم اللسان العربى ، وذلك فى حالات قليلة

---

(١) العقيقى : المستشرقون ج ٣ ص ١١٤٦ ٠

ومستدركة ، ولكنها لا تنقص بحال من قيمة عملهم الجليل فى هذا الميدان (١) ٠

أما المجلات والدوريات الشرقية فهى تزيد على ثلاثمائة مجلة متنوعة خاصة بالاستشراق ، وهى منشـــورة بمختلف اللغات ، وبعضها بثلاث لغات ، وتتناول أبحاثها الشرق فى لغــاته وأديانه وعلومه وآدابه وفنونه ، قديمها وحديثها ، وتأثرها وأثرها ومقارنتها بغيرها ، على الاسلوب العلمى الذى عرفناه للمستشرقين ، وتفتح صفحاتها للعلماء الشرقيين ، ولا تكتفى بالمباحث بل تتجاوزها الى نشر المخطوطات والوثائق ، ومختصرات لمحاضرات الأساتذة ومصادر الاستشراق ، وتقديم الكتب فى الشرق والغرب ، فلا يصدر كتاب حتى يبادر الناقد الى نقده نقدا دقيقا نزيهـــا ٠ ولكل مجلة نقــاد متخصصون بالموضوعات والمؤلفين والعصور والدول (٢) ٠

والمستشرقون الألمان منظمون فى جمعية تضمهم هى الجمعية الشرقية الألمانية التى تقوم منذ ١٢٠ سنة والتى تجمع المستشرقين الألمان ٠ ولهذه الجمعية منذ ١٩٦١ معهد ألمانى للدراسات الشرقية فى بيروت مهمته القيام بموضوعات بحث خاصة وعلى تدعيم الصلة بين الاستشراق وبين البلاد العربية ، وملاحظة عمليات الطبع التى تجريها الجمعية فى المطابع العربية ٠ وتظهر مجلة الجمعية الشرقية الألمانية بانتظام حاملة المقالات العلمية المتخصصة ونقد الكتب فى ميادين الاستشراق جميعا ، وبلغ عدد ما صدر من مجلداتها حتى الآن ١١٥ عددا ٠ وهناك أيضا ، عدا المجلة ، مسلســلات نشرية تمولها الجمعية وترعاها ، وهى « دراسات فى علم المشرق » و «المكتبة

---

(١) عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢١٠ ٠

(٢) العقيقى : المستشرقون جـ ٣ ص ١١٤٨ ٠

الاسلامية » • ويجد ممثلو الدراسات العربية والاسلامية مجالا آخر لنشر مقالاتهم ودراستهم الصغيرة فى مجلتين آخريين هما (مجلة الاسلام) ومجلة (عالم الاسلام) • بينما تختص (جريدة المدونات الاستشراقية) بمناقشة ونقد الكتب المتصلة بالاستشراق • أما مجلة (أورينس) التى ظهرت سنة ١٩٤٨ فهى تنطق باسم الجمعية الدولية لبحوث الشرق ، ولا تعتبر مجلة ألمانية الا بتحفظ• وهناك مجلة (الشرق) التى تختص بأحوال الشرق المعاصر وخاصة أحواله الاقتصادية والتى تخرج عن « اتحاد الشرق الأدنى والأوسط» فى هامبورج (١) •

وجدير بنا أن نذكر أقدم مجلة أصدرها المستشرقون ، واهتمت بالدراسات الاسلامية والعربية ، وهى المجلة الآسيوية التى يرجع الفضل فى صدورها الى البارون الفرنسى دى ساس (١٧٥٨ ــ ١٨٣٨) (٢) ، الذى يعتبره كثير من المستشرقين امامهم ورائدهم ، وقد عاصر الثورة الفرنسية ونابليون وحملته على مصر • وقد أنشأ فى سنة ١٨٢٢ (الجمعية الاسيوية) وأنشأ مجلتها الشهيرة ، وأصبح رئيسا لتحريرها ست عشرة سنة • وقد اختلف العلماء من أوروبا قاطبة عليه ، وأخذوا عنه ونظموا الاستشراق فى بلدانهم على نمطه بفضله (٣) •

بلغت مؤتمرات المستشرقين الدولية (١٨٧٣ ــ ١٩٦٤) ٢٦ مؤتمرا ، ضم الواحد منهم مئات العلماء من أعلام المستشرقين

---

(١) بارت : الدراسات العربية والألمانية ص ١٠٥ ــ ١٠٦ •

(٢) وهو غير (ديلاسى أوليرى) المستشرق البريطانى •

(٣) المستشرقون ج ١ ص ١٨٠ •

والعرب والمسلمين والشرقيين ، أسهموا فيما بينهم في أقسامه الأربعة عشر ، عن آسيا وافريقية ، وتناولوها بالمحاضرات والأبحاث والنظريات والمقترحات • ثم نشروها في مجلدات للاهتداء بها كنظم ومناهج ووسائل ، ثم أصبحت مع دراسات مؤتمراتهم الموضوعية والاقليمية ، أصولا وامهات وأسانيد للباحثين (١) •

ومن أشهر هذه المؤتمرات ، مؤتمر الثقافة الاسلامية الذى نظمته جامعة برنستون ومكتبة مجلس الشيوخ الأمريكى • وعلق الأستاذ محمد خلف الله احمد (٢) الذى حضر هذا المؤتمر على أعماله فقال : تبين لى ، كما تبين لزملائى ، أن الأمم الاسلامية تتفق كلها فى الاعتزاز بقواعد دينها وتراث حضارتها ، ولكنهـــا تفترق فى موقفها من بعض المعضلات التى يثيرها الاجتماع ونظم الحيـــاة فى الدولة الحديثة ، وتفترق كذلك فى أساليب فهمها لأسرار التشريع ودوراته مع المصالح العامة •

والظاهرة أن عنـــاية أمريكا وأوروبا بالاسلام قد أخذت فى السنوات الأخيرة شكلا جديدا نتيجة لشعور الغربيين بأن العالم ينقسم الآن الى فريقين ، أحدهما دينى ، والآخـــر لا دينى ، وأن واجب أهل الديانات الســـماوية أن يقفـــوا متكاتفين فى وجـــه الالحاد (٣) •

---

(١) المستشرقون جـ ٣ ص ١١٤٨ •

(٢) الاسلام والحضارة ص ٢١ •

(٣) المصدر السابق ص ٢٣ •

دائرة المعارف الاسلامية :

تمثل دائرة المعارف الاسلامية عملا مشتركا واسع النطاق ، اشترك فيه عديد من المستشرقين ، فهي اذ تمثل التعاون العالمي ، وقد استغرق اصدارها عدة سنوات ، وبذل فيها كثير من الجهود العلمية . وقد اشترك في التخطيط لها اشتراكا حاسما المستشرق (سنوك هور جرونيه) ، وقام على التنفيذ خلفه على كرسي ليدن المستشرق (أرنت يان فينسينك ١٨٨٢ ــ ١٩٣٩) ، واشترك لفيف من المستشرقين في اعداد هذه الدائرة . وساهم الألمان فيها مساهمة فعالة ، فقد اشترك في نشر الجزء الأول من الدائرة ، الذي تم وظهر عام ١٩١٣ ، من الجانب الألماني أرتوشاده (١٨٨٣ ــ ١٩٥٢) وريشارد هرتمن (١٨٨١ ــ ١٩٦٥) . وفي الجزء الثاني الذي ظهر عام ١٩٢٧ هانس باور (١٨٧٨ ــ ١٩٣٧) ، واشترك (فيللي هيفننج) في مسئولية نشر الجزء الثالث والجزء الرابع والمجلد التكميلي ، تلك المجلدات التي جرى العمل فيها في وقت واحد وخرجت في الأعوام ١٩٣٦ و ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على التوالي .

ظهرت « دائرة المعارف الاسلامية » في المرة الأولى في ثلاث طبعات ، طبعة ألمانية ، وطبعة انجليزية ، وطبعة فرنسية . وكانت المقالات في غالبيتها بقلم المتخصصين في موضوعاتها ، وكانت تترجم من لغتها الأصلية الى اللغتين الأخريين . وقد بدأ بعد الحرب العالمية الثانية الاعداد لطبعة جديدة من دائرة المعارف يشترك فيها أيضا لفيف من العلماء الألمان المتخصصين ، وبدأت تظهر منذ عام ١٩٥٤ ، ولكن في طبعتين فقط ، انجليزية وفرنسية (١) .

---

(١) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ٣٨ .

واهتم المستشرق البريطانى المعاصر المعروف السير هاملتون جيب (المولود عام ١٨٩٥) باخراج دائرة المعارف الاسلامية الموجزة باللغة الانجليزية ، فصدرت فى لندن سنة ١٩٥٣ ، واشترك مع (جيب) المستشرق الهولندى (كرامرز) ٠ ولانرى بأسا فى الحديث عن (جيب) و (كرامرز) فى سطور قليلة ٠

أما (جيب) فهو من مواليد الاسكندرية فى مصر (١٨٩٥) ، وهو خليفة مرجوليوث فى اكسفورد ، وعضو المجمع العلمى العربى فى دمشق ، والمجمع اللغوى فى القاهرة عند تأسيسه ، وهو يكتب العربية كأدبائها ، وقد درس على المستشرق الكبير (توماس أرنولد) ، ثم أصبح أستاذ للغة العربية فى جامعة لندن (١٩٣٠ ــ ١٩٣٧) وفى أكسفورد (١٩٣٧ ــ ١٩٥٥) وفى هارفارد منذ ١٩٥٥ ، ومديرا لمركز دراسات الشرق الأوسط (١٩٦٢) وله كثير من المؤلفات والأبحاث القيمة (١) ٠

أما (كرامرز) فقد ولد فى سنة ١٨٩١ وأصبح ترجمان السفارة الهولندية فى الآستانة (١٩١٥ ــ ١٩٢٢) ، ثم انتدب للمعاونة على نشر مطبوعات الأمير يوسف كمال فى مجموعته (آثار أفريقية ومصر) سنة ١٩٢٥ ٠ وعين أستاذا للتركية والفارسية فى جامعة ليدن ، خلف (فنسينك) على كرسى العربية فيها (١٩٢٩) ، وله كثير من المؤلفات القيمة يضيق المقام عن ذكرها (٢) ٠ وله مجموعة مقالات فى الجزءين الثانى والثالث من دائرة المعارف الاسلامية ٠

---

(١) انظر قائمة بمؤلفات (جيب) فى كتاب (المستشرقون) جـ ٢ ، ص ٥٥٣ ــ ٥٥٤ ٠

(٢) انظر قائمة بمؤلفات (كرامرز) فى كتاب (المستشرقون) جـ ٢ ص ٦٧٠ ــ ٦٧١ ٠

يمتدح الأستاذ كرد علي (١) جهود المستشرقين في دائرة المعارف الاسلامية ويرى ألا يعيبها الا الأبحاث التي ساهم بها الأب (لامانس) ، فيقول : من الكتب المهمة التي نشرت في مدينة (ليدن) الهولندية بلغات العلم الثلاث : الفرنسية ، والألمانية ، والانجليزية ، كتاب « دائرة المعارف الاسلامية » وتعد هذه الدائرة ، بما ضمنت لها من مؤازرة أعاظم الباحثين من علماء المشرقيات ، من أجمع ما كتب على الاسلام وأصول أهله وبلدانه وتقويمها • وهو عمل جليل ، لم يخل - ويا للأسف - وجهه الجميل من تشويه قليل أتاه ذلك الذي ينظر الى الاسلام أبدا بعيون البغيض ، وأعنى به (لامانس) ، فأساء الى الحقيقة في مقالاته ، ظانا أن هذه الدائرة أيضا بوق دعاية مذهبية ، وأن على الداعية أن يحتال لبث دعوته ، لوخان الواجب عليه في عمل آخر •

هل نهمل أبحاث المستشرقين في المستقبل :

قام المستشرق الألماني المعاصر (بارت) (٢) بتقويم جهود المستشرقين في الماضي ، ثم حاول أن يرسم صورة لمستقبل الاستشراق ، فقال : اذا نظر الانسان نظرة الى الوراء الى المنشورات الكثيرة التي صدرت في الحقبة الأخيرة في ميدان الدراسات الاسلامية والعربية ، راعه ضخامة ما أنجز من عمل • ويحق للانسان أن يفرح بما تم ، ويخطىء الانسان ان أخذه الغرور والزهو ، والأحرى به أن يتواضع ويفكر في حدود المعرفة • فكل دراسة في هذا الميدان هي في حقيقتها جزء ضئيل في كل كبير ،

---

(١) الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٣١ •

(٢) الدراسات العربية والألمانية ص ١٠٧ •

وينبغى على العالم أن يعيد النظر فى موقفه من حين لآخر • ولا شك أن البحث العلمى الدقيق العميق وحده هو الذى يأخذ بيدنا الى أمام • ونحن معشر المستشرقين نتمتع بميزة الجلوس فى مكان ذى نافذة نطل منه على الشرق الساحر الجذاب • والآخرون على حق عندما ينتظرون منا أن نعرفهم من حين لآخر بالعالم الذى نحيط به علما •

وتساءل الأستاذ نجيب العقيقى فى كتابه القيم (المستشرقون) (١) عن مدى حاجتنا الى جهود المستشرقين ، ثم قال : أما القول فى تراثنا بأننا أهله وأصحابه ولا يجوز لنا بعد اليوم أن نتخلى عنه لسوانا من الأجانب الغرباء ، فقول مردود لأنه يحرمنا من حق دراسة التراث الانسانى ؛ ولأولئك الأجانب الغرباء نصيب فيه • ويسقط ، فى الوقت نفسه ، عن تراثنا صفة الانسانية فى تأثره بالثقافة العالمية وأثره فيها من اليونان والفرس والرومان الى أوروبا وأفريقية وآسيا حتى الشرق الأقصى • ولولا جهود المستشرقين لما أحطنا به أو اهتدينا الى كل عظمة أسلافنا وحققنا تواريخ أولى دولنا ، وما دامت ثقافتنا عالمية ومن سماء الشرق انبثقت الأديان الثلاثة المنزلة ، حق لعلماء العالم تمحيصها لمعرفة مصادر حضارتهم ، وتقصيهم صلات بلدانهم بالشرق وبحالته العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لتحديد تاريخهم منه فى ضوئها •

ويرى المرحوم الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن ضرورة الاستفادة من أبحاث المستشرقين ، فيقول : « لسنا نظن أن باحثا

---

(١) جـ ٣ ص ١١٦٣ •

منصفا يستطيع أن ينكر ضرورة الالمام بكل ما يكتب المستشرقون، لان أكثر ما يكتبونه دقيق ومنظم ، وفيـــه كثير من مزايا البحث العلمى الصحيح • أما عيوب التعصب فمن السهل أن ندركهـــا ونحذر شرها » •

هذا بينما يرى الأستاذ محمد خلف الله أحمد ، مدير معهد البحوث والدراسات العربية (التابع لجامعـة الدول العربيـة) ضرورة اعتمـــاد الباحثين على أنفســـهم ، والكف عـــن تقليد المستشرقين ، فيقول (١) : من واجب المسلمين أن يدرسوا ويفهموا موقف الغرب من الاســـلام ، وأن يأخـذ علماؤهم زمام الأمـور بيدهم ، فقد انقضت المرحلة التى كنا نقف فيها من المستشرقين موقف المقلد . وقد تهيأت لنا سبل البحث والتحقيق ، التى كانت مسالكها وعرة علينا قبل النهضة العربية • وطبائع الأشياء تقضى أن يكون علماء المسلمين أعرف بأسرار دينهم ومراميه ، وأقدر على تفسيره وتطبيقه ، وأعلم بما يحقق رسالته فى حضـــارة الشرق والغـرب •

ورغم تأييدنا لرأى أستاذنا الكبير الفاضل محمد خلف الله أحمد ، الا أننا لن نستطيع تجاهل أبحاث المستشرقين أو اهمالها • فلا زالت الدول العربية والاسلامية توفد أبناءها لدراسة الماجستير والدكتوراه فى الدراسات العربية والاســلامية ، ولا زالت كتب المستشرقين تغزو الأسواق العربية ، بلغاتها الأصلية أو ترجماتها العربية ، وهى كتب أنيقة فى طباعتها ، جميلة فى تبويبها وعرضها . ولا زالت المجلات والدوريات الأجنبية تصل الى جامعاتنا ومعاهدنا العربية • ولا تزال هناك بعض الموضوعات ، وان كانت قليلة ،

---

(١) الاسلام والحضارة ص ٢٣ •

لا نجد فى كتبنا العربية ما يسد الفراغات الموجودة فعلا ، كما أن بعض كتبنا العربية فى هذه الموضوعات لا تتميز بالعمق أو الجدية التى تتصف بها غالبا كتب المستشرقين ٠

ومهما كان الرأى ، فقد تضاءلت حركة الاستشراق ، كما أوضحنا فى الفصل الثانى عند حديثنا عن مراحل الاستشراق ، واتجه معظم المستشرقين نحو الدراسات الافريقية والآسيوية ، بدلا من الدراسات العربية والاسلامية ، نتيجة ظهور علماء وباحثين عرب ومسلمين أنتجوا كثيرا من الأبحاث والدراسات المستفيضة القيمة التى جعلتنا فى غير حاجة الى بضاعة فكرية مستوردة ٠ كما أن انتهاء الاستعمار من الشرق العربى ، جعل الاستشراق يتجه اتجاها علميا بحتا بعيدا عن الدوافع الاستعمارية القديمة ٠ كما أن العرب والمسلمين قد أصبحوا من الثقافة والوعى ما يجعلهم يميزون بين الغث والسمين ، والطيب والخبيث ، ويفطنون الى ألاعيب المستشرقين أو مكائدهم ، فلم يعد هناك مجال لها بعد ، ولكن ، ورغم ذلك ، فان أبحاث المستشرقين لا تزال تكون جانبا كبيرا من مكتبتنا العربية الاسلامية ، وان (رفوف) مكتباتنا العامة تزخر بالآلاف من أبحاثهم ، التى أصبحت جزءا من تاريخنا الفكرى ، ومرحلة من حياتنا الثقافية ، لايمكننا الغاءها بجرة قلم ، أو بكلمات حماسية ٠ ولكن من مصلحتنا أن تظل هذه الأبحاث موجودة وقائمة الى جانب أبحاث العلماء والمؤرخين والمفكرين العرب ، ثم نقول لهؤلاء وهؤلاء ، انما البقاء للأصلح ٠

فهرس

صدر من هذه السلسلة :

١ ـ مصطفى كامل فى محاكمة التاريخ
د٠ عبد العظيم رمضان

٢ ـ على مـاهر اعداد رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د٠ محمد نعمان جلال

٥ ـ غارات أوربا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى
عليه عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر
لمعى المطيعى

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى
د٠ عبد المنعم ماجد

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د٠ على بركات

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د٠ محمد أنيس

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير
د. نبيل راغب

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر فى عصر الولاه
د. سيدة اسماعيل كاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسن الخربوطلى

العدد القادم :

فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر

د. حلمى أحمد شلبى

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٣٣٢٠

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٧٥١ ـ x

من المعروف أن تاريخ مصر جزء لا يتجزأ من التاريخ الإسلامى ، ومن هنا فقد شغلت مصر جانبا هاما من اهتمامات المستشرقين ، فتوافد الكثيرون عليها ، خصوصا منذ الحملة الفرنسية على مصر ، التى أصطحبت معها عددا كبيراً من العلماء المستشرقين المتخصصين فى كافة فروع المعرفة ثم فى عهد محمد على الذى توافد فيه على مصر عدد كبير منهم ومن هنا كان طبيعيا أن يهتم الكتاب بالاستشراق فى مصر فى إطار اهتمامه بالتاريخ الإسلامى العام .

١٠٠ قرش
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب